

البقعة المباركة:

أَخْلَاطُ^(٨)

تنحدر أصول الأستاذ فتح الله كولن من مدينة أخلاط، ولا بدّ لإدراك كنه هذه السلالة من إدراك الدور المحوريّ لمدينة "أخلاط" في التاريخ الإسلاميّ أوّلاً، فهي بوابة الإسلام إلى الأناضول، وأوّل بقعة مباركة في الأناضول يُرفع فيها الأذان ويُذكر فيها اسم الله ﷻ ورسوله ﷺ.

وبسقت من فسائل الإسلام في هذه المدينة أشجار سامقة، انشعبت أغصانها حتى أظلت الأناضول، ثم فاح عبيرها في العالم كلّه بريادة العثمانيين، فأخلاط هذه هي مهد الإسلام في بلاد الأناضول، وقد كان من فسائلها ما كان في نشر عبيره.

وإذا كانت أقدم شواهد قبور الأناضول الآن في أخلاط، فهذا يُجلبّي لنا المكانة التي اضطلعت بها تلك المدينة منذ قرون عدّة؛ فقد نشر أبنائها الإسلام في مناطق هجرتهم التي أرغمتهم عليها الكثافة السكانية فيها، فعلى أيدي هؤلاء المهاجرين انتشر الإسلام في بلاد الأناضول والبلقان، ومن "أخلاط" كانت الهجرة المباركة، وأشرق التاريخ التركيّ الإسلاميّ، وغدت جسراً عبّر منه الإسلام إلى قلب الأناضول ثم إلى الغرب... فأخلاط في قيمها ظرفٌ لأزمنةٍ انصهرت في ماضٍ عريق، بوسعنا

(٨) هي مركز تابع لمحافظة "بثليس" في منطقة شرق الأناضول، وهي تقع على الساحل الشمال الغربي من "بحيرة وان" بتركيا. (المترجم)

أن نتذكر الحياة فيها أمّا أن نحكيها فهيئات، عينها ساهرة على ماضيها تبيت تحرسه كما تصون شرفها، عذراء لم تمسّها الحداثة بسوء ولو بنظرة، ولم تقدر أن تحوّل ماضيها إلى "حاضر"، فأخلاط ساحرة خلّابة دائماً بحالها هذا وموقعها ذاك.

حقّاً إنّ الجنود هم الذين فتحوا إسطنبول بعدّتهم وعتادهم بقيادة محمد الفاتح، إلا أنّ "أخلاط" هي التي نفخت الروح في إسطنبول لتجعل منها مدينةً عثمانيةً، فـ"أخلاط" بالأحرى هي التي أنقذت إسطنبول من نير الغزو الثقافي للبيزنطيين، وهيأت الأجواء لدخولها في الإسلام؛ وهي أحقّ من بؤرصة بلقب "المدينة الروحية"، نعم كان لبورصة يد في الدولة العثمانية، إلا أنّ "أخلاط" كانت لها اليد الطولى في نشر الإسلام في الأناضول، ومنه إلى المناطق الأخرى، فلطالما عُنيّت "أخلاط" بفسائلها التي غُرست فيها، وأهدت أغصانها بأريجها الفوّاح بالهدى والسلام إلى أنحاء العالم كافّة.

ومن أغصان تلك الفسائل ذريّة "خليل أغا"، هاجرت فيمن هاجر وعبق الهدى يرشح منها... رحل خليل أغا وذريته وفي جعبتهم كلّ ما كان في أخلاط من ثراء روحي وتاريخي؛ رحلت العائلة من أخلاط لظروفٍ خاصّة، وكانت تحمل معها بذرة مباركة من بقعة مباركة، ثم ولّت وجهها شطر "أرضروم" "قلعة الإسلام في الأناضول".

أصوله ونشأته

انتقلت عائلة الأستاذ فتح الله إلى مركز "باسينلر" ("حسن قلعة" سابقًا)، ثم إلى قرية بين باسينلر وأرضروم تُدعى "قوروجق"، ومنذ أن حلَّ جدّه الأعلى خليل أغا بهذه المنطقة كانت تراوده أحلام العودة إلى أخلاط، بيد أن العائلة لم تستطع أن تعود، فاستقرَّ بها المقام في قرية قوروجق حتى غدا أكثر أهلها منها.

الإنسان في علم النفس الحديث إن هو إلا نتاج البيئة والوراثة؛ وهذه الفكرة وإن كنا لا نسلمها بإطلاقها، إلا أن تأكيدها على البيئة التي يتربى فيها الفرد له أهميته، فمن يسير حياة الأستاذ فتح الله يتبين له أن بيئة أسرته التي تربى فيها كان لها بالغ الأثر في شخصيته، وأنها أساس في تكوين أهم خصال حياته "الفكر والحركة والدقة"، لقد اصطبغت بيئة أسرته بصبغة الإسلام وهديه رغم كل الصعاب والعقبات في ذلك العصر، بل إن كل فردٍ في أسرته اصطبغ بصبغة الإسلام.

كان لخورشيد أغا بن خليل أغا ولدان: سليمان أفندي والملا أحمد، اشتغل سليمان أفندي بالتجارة؛ أما الملا أحمد والد شامل أغا جدّ الأستاذ فتح الله فقد أثر الزهد رغم أنه أوتي سعة من المال، فكان الزهد والتقوى لباسه، ورياضة النفس أساسه، وله في حبيبات الزيتون غناء، قويّ البنية، طويل القامة، مهيب، يحترمه الناس جميعاً، في إشرافاته الروحية سرّ عظمته الحقيقية، حياته كلها تنسك وتعبّد، لم يُعهد عنه التواني في أداء العبادة، وصار يقوم الليل كله في العقود الثلاثة الأخيرة من عمره،

لا يغمض له جفن ولو في السَّحر عندما يصْرَع التَّوْمُ السُّمَّار، ولا يغفو سوى ساعة أو ساعتين فحسب.

كان شامل أغا جدّ الأستاذ فتح الله أشبه الناس بوالده، فهو مثال الوقار، والحيطة، والجديّة، والشّدة في أمر الدّين، فحياة الرّوح هي محور أفعاله، فشعاره "اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة"، وهو رجل جادّ وقور يحترمه الناس جميعاً، حياته حياة الأولياء؛ يتهجّد حتى الفجر، وله في لُقيّات يقمّن صلبه الغنّاء، يصوم حتى تظن أنّه لا يفطر، له من الأشقاء أربعة: شاكِر أغا، وعاكف أغا، وذاكر أغا، ومحمد علي أغا.

وما إن حطّت العائلة رحالها في قُورُوجُق حتى اضطرت للهجرة مرتين:

الأولى: أثناء الحرب العثمانية الروسية (١٨٧٧ - ١٨٧٨ م) المعروفة بـ "حرب ٩٣"^(٩)، اضطرب أمر العائلة، فرحل الملا أحمد بأسرته إلى ضواحي مدينة "سيواس"، وأعوّزت العائلة هناك، فلما انتهت الحرب عادت إلى قُورُوجُق.

في عام ١٨٩٠ م بُعيد العودة الثانية إلى قُورُوجُق بنحو ٨-٩ سنوات؛ توفي الملا أحمد.

الثانية: إبان الحرب العالمية الأولى، ففي هذه المرة ذهب شامل أغا بأفراد الأسرة إلى إحدى قرى "يَزْكُوي" في مدينة "يُوزْغات"، وما إن انتهت الحرب حتى عادت العائلة إلى قريتها في أرضروم - عادت - مترجّلة لما حلّ بها من ضيق مادّي.

(٩) اشتهرت هذه الحرب في التاريخ العثماني بـ "حرب ٩٣" لوقوعها عام ١٢٩٣ من التقويم الرومي.

ورغم هيبة شامل أعا العظيمة، إلا أنه كان بينه وبين حفيده فتح الله اتصال روحي لم يستطع أحد أن يلحظه، كان يحب حفيده كثيراً وإن لم يكن يظهر ذلك، فما رُئي هذا الرجل العثماني يبكي قط إلا عندما رأى حفيده لأول مرة بعد غياب كان بسبب تعيين والده إماماً في قرية ألوار، احتضنه فأخذه البكاء، وفاضت مشاعره بهذا الشَّعر:

غادرت ورددنا البلد الذي جفاه أجبتي والعنديل
فابك إن شئت حبيك أو دع واضحك إن شئت فالبين نحيب

ولشامل أعا ستة بنين و بنت اسمها دُرْدانة، والبنون هم: رامز وراسم ونور الدين وأنور وسَفَر وسيف الله.

أما أجداد الأستاذ فتح الله لأمه فلا تكاد تختلف بيئة حياتهم الروحية عن أجداد أبيه في شيء، كان جدّه أحمد أعا حفيد قُورْت إسماعيل باشا ورِعاً حتى إنّه كان يَخْشَى الذهاب إلى المدينة حذراً من أن يُقارِف ذنباً، وكان يختم القرآن كل أسبوع مرة فأكثر؛ أما جدّته السيدة خديجة فهي من سلالة حامي أدرنه شكري باشا.

كان للأستاذ فتح الله خال اسمه عبد الرزاق طُوب، قضى عنده فترة من طفولته، وهو إحدى فرائد عقده الروحي، وصفه الأستاذ فتح الله بأنّه من "أهل القرآن"، وقال: "إنني لأشبه الناس به في خُلُقته لا سيما العينين". ولجدّته لأبيه السيدة مؤنسة أثرٌ بالغ في حياته، فكم كان يذكرها في مواعظه وإنّ لأنينها ونحيبها من خشية الله أثراً كبيراً في نفسه، فعبادة الله ومحبته محور حياتها، حتى إنّها إذا سمعت اسم الله لم تملك عينيها، صَوّامة صامت اثني عشر عاماً متصلة، يصفها الأستاذ فيقول: "يا الله كم أثر في عمقها مثل البحار الهادئة، فبشائر الإيمان عليها بادية، وصلتها

بالله ظاهرة، كانت مبتسمة وكان جُل ضحكها التبسم". وفي هذا ما يشير إلى أنها كانت تجتهد في أن تجعل من أفعالها مِرآة للإسلام.

في عام ١٩٠٥م وُلِدَ رامز أفندي والد الأستاذ فتح الله، حَالَتْ هجرة الأسرة وما فيها من عقبات بين رامز أفندي والاستمرار في طلب العلم، إلا أَنَّهُ بعزمه وإرادته تعلَّم تلاوة القرآن الكريم في عقده الثالث، وسرعان ما رقي به شغفه بالقراءة والعلم على سُلَّم العلوم الشرعية، حتى إنه عُيِّن إماماً؛ كان من سمته الدقَّة البالغة في الحياة والخشوع في الصلاة، يستثمر وقته بدقَّة، فتجده يملأ الفترة ما بين عودته من الحقل إلى إعداد الطعام بقراءة الكتب، وهو في الطريق تجده يقرأ القرآن الكريم أو يذاكر ما حفظه من نَظْم العربية والفارسية؛ كان مضيافاً، لا يكاد بيته يخلو من العلماء وكأَنَّهُ معهد شرعي؛ كان قويَّ الحافظة حادَّ الذكاء، وكان يتميز -فضلاً عن هذا كلِّه- بالدماثة، ففي هذا المقام يقول الأستاذ محمد قِرْقَنجِي: "يا لَه مِنْ رجل! فرغم نشأته في قرية إلا أَنَّهُ يباري من تربَّى في مدرسة أندرون العثمانية"^(١) من النبلاء، فأَن تعرف متى وكيف وبأي أسلوب تتحدث تعوزك لهذا تربية خاصَّة وأخلاق سامية".

من الخصال البارزة في رامز أفندي تعلُّقه بالصحابة الكرام ﷺ حتى لكأَنَّهُ مجنون بهم، وكثيراً ما كان يقرأ عن حياتهم؛ فورث عنه الأستاذ فتح الله هذا الحَبَّ الجَمَّ لهم، بلغ ولع رامز أفندي بالصحابة أَن أهل بيته كانوا يشعرون أَنَّهُم والصحابة أسرة واحدة، فذكرهم ديدنه، والحديث

(١٠) مدرسة في القصر العثماني أسست في عهد السلطان مراد الثاني، وحُدِّثت في عهد السلطان محمد الفاتح، هدفها تربية الهيئة الإدارية والعسكرية للدولة، وتأهيل القوى العاملة في العاصمة العثمانية وفي الطبقة البيروقراطية في الريف.

عنهم متعته، ولو رأيت هذا العاشق الولهان يحدث الناس عن الصحابة ويسرح بناظريه في الأفق لحسبته يراهم رأي العين.

كان رامز أفندي -في رأي الأستاذ فتح الله- أرضاً طيبة يُستنبت فيها الطبيب النافع، إلا أنّ الأجواء لم تأذن للرياح أن تسوق السحاب إلى هذه الأرض، وكان مدرسة في الورع؛ فكان إذا عاد بالبقر من الحقل يلجمه لثلاً يأكل من عشب الحقول ولو قليلاً.

تربية الشرق هي نمط علاقة الأستاذ فتح الله بوالده، كان يجلس بين يديه ليتعلّم القرآن، فيحبّ إليه حفظه، ولم يكن ليُظهر حبّه لولده أمام أحد رغم أنّه كان يحبّه حبّاً جمّاً.

أمّا والدة الأستاذ فتح الله فهي السيدة رفيعة، معلّمة الأوّل، وهي من أسرة عريقة، فعُمّها هو مفتي الشام يومئذ، كانت ربّة منزل فيه خمسة عشر فرداً تقوم على شؤونهم، ومع هذا دأبت على تعليم نساء القرية القرآن رغم الأخطار في الفترة التي حُطرت فيها قراءة القرآن وتعليمه؛ علّمت وليدها فتح الله قراءة القرآن وهو في الرّابعة، وما إن تعلّمه حتى قرأه كلّه لأول مرة في شهر، فكان للسيدة رفيعة أكبر الأثر في حياة الأستاذ فتح الله بعشقها لتعليم القرآن الكريم، ومواظبتها على أداء العبادة، وحياتها المملأى بالمسؤوليات.

يا الله ما أوثق صلة هذه السيدة برّبها! ذات ليلة همّ الأستاذ فتح الله ابن الثانية أو الثالثة عشرة أن ينام قبل أن يصلي العشاء، فأذنّه أمّه بالصلاة، فأجاب: "إنني مُرهق، لعلّي أستيقظ ليلاً وأصلي"، فقالت: "ربما يشق عليك ذلك، فتفوّت الصلاة، ثكلتُك الليلة إذا لم تنهض لتصلي". بلغ بها إيمانها أنها تستغني عن فلذة كبدها إن لم يأت بما أمر به الله.

بَيَّنَ الأستاذ فتح الله وأمه وشيخة حب وثيقة، فهو يدها اليمنى في البيت، إذ كان لها ثمانية أولاد ترعى شؤونهم، فكان الأستاذ فتح الله -وهو يحفظ القرآن في هذه الآونة- يغسل -وهي مريضة- الملابس والأطباق، ويطبخ ويعجن... نعم، فدأب أمه على تحفيظ القرآن، ورعاية أولادها رغم أنها مجهدة مرهقة، ومواظبتها على أداء الفرائض حقَّ الأداء، كل ذلك كان له بالغ الأثر في حياته.

توفي ثلاثة من إخوته العشرة وهو طفل، كانت السيدة "نور الحياة" أكبرهم، ثم فضيلة إلا أنها وافتها المنية وهي طفلة، ثم الأستاذ فتح الله، فصبغة الله، ثم المسيح، ثم فقير الله إلا أنه توفي وهو طفل، ثم حسبي^(١١)، فصالح، وفضيلة، ثم نظام الدين إلا أنه توفي وهو طفل، ثم قطب الدين أصغرهم؛ وبين الأسرة عرى وثيقة من الحب والتقدير، فعندما غادر الأستاذ فتح الله أراضروم إلى أدرنه ومنها إلى الجيش لم يكلم المسيح أحدًا خلال أربع سنوات فارقه فيها أخوه الأكبر، قلما تحدث إلى أحد، إذ صار شغفه بأخيه فتح الله حجابًا بينه وبين الناس. وكذلك كان الأستاذ فتح الله، يحكي أن أختا له توفيت في طفولته فبكى عليها كثيرًا وزار قبرها كثيرًا وكان يدعو: "اللهم الحقني بأختي لأراها".

يُروى عن أمه وذوي القربى القريبة أنَّ أصوله من جهة أبويه من شجرة أهل البيت المباركة، لكن الأستاذ يقول: "إنه لا يمكن القطع بشيء في هذا؛ فكتاب شجرة العائلة مفقود".

ومن ألمع الحلقات التي تشكّل منها عقد الروح في حياة الأستاذ فتح الله: الشيخ "ألوازي أفه"، فهو واسطة العقد، بل كأنه مغنطيس المعنى

(١١) حسبي ندائي كُولَن توفي في ١٢ أكتوبر/تشرين الأول ٢٠١٢م.

ومنبع تتغذى منه روح الأستاذ فتح الله، فالحديث عنه قبل دراسة حياة الأستاذ فتح الله ضروريٌّ جدًّا؛ لتتعرّف على بيئته التي ترعرع فيها.

برزَ الشيخ ألّوّازلي أفّه في طليعة علماء عصر الجمهورية، فنشأته شهدت أفعول الدولة العثمانية وظهور الجمهورية، وله أثرٌ كبير على الأستاذ فتح الله في تربيته وتعليمه، يقول الأستاذ: "الشيخ ألّوّازلي أفّه هو اليد الخفية التي كانت وراء ما أجده من مشاعر؛ فتربّى في أرضٍ كان ينبوعها السيد ألّوّازلي أفّه؛ وكان له في قلوب الأسرة كلّها حبٌّ جمٌّ وتقدير وتوقير، يقول الأستاذ: "أذكر أن خالي كان يجله حتى لكأنه يكاد يبسم كل ما ذكر اسمه؛ أمّا خالتي فهي مُتِمّة بهذه البيئة، ولأبويّ وشيعة عريقة به... فمنذ أن رأيت النور ألفت أبويّ يرتشفان من هذا ينبوع الصافي كأنهما ظمآن برّح به العطش".

وتحدّث عن صلته بالشيخ ألّوّازلي أفّه فقال: "لم يكن ينبس ببنت شفة إلا حسبته إلهامًا من عالم آخر، فعندما كان يحدثنا كنّا ننصت إليه كأنّ على رؤوسنا الطير، لم يُعهد من قبل! لا أدعي أنني أحطت به فهمًا؛ فيوم وفاته كنت في السادسة عشرة، إنّه الروح التي دغدغت باكورة الروح والمعنى في حياتي، يتنزّل بأسلوبه لأعي عنه وأفهمه لا سيما أنني صغير لا يبلغ عقلي ومداركي كُنّه؛ لقد عاش عظيمًا، لكن لم يجد الكبير إلى قلبه طريقًا، كان يطوف في كعبة القرب من الله، لا يأبه لشيء من الأبهة والعظمة، فهو كطير "حوما" ترى ظلّه لكنك لا تراه".

أحبّ الشيخ ألّوّازلي أفّه الأستاذ فتح الله أيّما حبٍّ، وكان يناديه "تلميذي"، ولا يرضى أن يفارقه بتأثًا، ولما بلغه أنه سيتعلّم العربية

على يد معلّم آخر، استدعاه وقال بوقار ونبرة يخصّه بها: أقسم بالله ثلاثاً أنك لو ذهبت لمُزّقت إرباً إرباً.

وغدت تلك الحلقة واسطة العقد في عالمه الروحي، ولطالما تجلّت آثارها في روحه، فتربية الأستاذ فتح الله منذ نشأته كانت في بيئة علمٍ تسود أجواءها ألطاف روحية، إنها بيئة مفعمة بنسائم حياة التكية الروحية تارة، وبعلم المعاهد الشرعية تارة أخرى، ذاك هو المناخ الذي نشأ وترعرع وتربّى فيه الأستاذ فتح الله.

مولده وطفولته

ولد الأستاذ فتح الله في ٢٧ نيسان/إبريل ١٩٤١م وفقاً لبطاقته الشخصية، لكن تاريخ ميلاده الحقيقي كان قبيل هذا بنحو عامين أو ثلاثة، فالمواليد في بيئته وعصره لم تكن تُقَيَّد على الفور، وكثيراً ما يشير في ذكرياته إلى أنه ولد قبل هذا.

أمّا طفولته وفتوته فلم تكن كذلك التي عاشها أقرانه؛ فلنشأته مناخ متميز هيأته له خصائص أسرته آنفة الذكر، وملازمة أهل الذكر والعلماء النيرة بيتهم بسبب حب والده رامز أفندي ضيوف عامة وللعلماء خاصة، ومن حديثه عن هذه الفترة: "للعلماء والمشايخ رعاية وحظوة خاصة في بيتنا، ومن المحبوبين المشهورين الذين كانوا يأتون بيتنا على الدوام الشيخ ألّوّازلي محمد لطفي أفندي، وأخوه السيد وهبي أفندي، وسري أفندي، وشهاب الدين أفندي... لم أجالس أترابي وأقراني قطّ في طفولتي أو فتوتي، فديدني أن أجلس إلى الكبار وأصغي إليهم، حتى أصبح ذلك خلقاً فيّ، ولوالدي أثر كبير في هذا؛ فحديث هذه المجالس تطرب له الأذان وتستملحه العيون، لا سيما حديث الشيخ ألّوّازلي فكلما حدثك قلت: هل من مزيد؟ وربما لم أستطع فهم كلّ ما كان يقول، لكنني كنت أحفظه كلّهُ؛ فأحكيه لأُمّي وجدتي وأزواج أعمامي، وهذا له مذاق خاصّ عندي".

وبدأ ابن الرابعة يتعلم القرآن الكريم بالتزام ودقة عالية، ثم التحق بالمدرسة الابتدائية في قريته عامين أو ثلاثة، إلا أنه تركها عام ١٩٤٩م

عندما عُيِّن والده رامز أفندي إمامًا في قرية أَلْوَار، ثم استكمل الابتدائية في أرضروم بالانتساب.



مسقط رأس الأستاذ فتح الله في قرية قُورُوجُق بمدينة أرضروم

بدأ ابن الرابعة الصلاة وواظب عليها، حتى إنه أعاد في الآونة الأخيرة ما أدّاه من صلاة في مرحلة عمرية معينة قائلاً: "ربما أخطأت في أداء الصلوات حيثُذ"، وكان لا يتهاون في أداء الصلاة وهو في المدرسة ولو على مقعده، رغم سخرية أحد معلميه وغضبه؛ أمّا المعلمة بَلْمَاء هَانِم -وهي من إسطنبول- فكانت على خلاف هذا المعلم، فهي تجيد فن الحديث مع طلابها، وتثني على فتح الله في اجتهاده وتفوقه وأدبه؛ وجدت اسمه ذات مرة في قائمة الشُعْب في الفصل، فقالت له في دهشة "حتى أنت؟! والحُرّ تكفيه الإشارة ففيها أشدّ الإيلام، وكانت هذه المعلمة على يقين بأنّ لتلميذها مستقبلًا واعدًا، وقالت

في هذا لطلابها مشيرة إلى فتح الله: "كأنني أرى الآن بينكم ضابطاً شاباً يصول ويجول على جسر غَلَطَة".

وتحدّثنا عن تلك الأيام وهي فخور بما يقدّمه الأستاذ فتح الله اليوم، فتقول: "لم يكن فتح الله كغيره من الطلاب؛ ولد وقور، مجتهد، محترم، واسع الأفق، كنت أفخر به... لم يكن مشاكساً كغيره؛ كان قوي البنية أبيض، يجلس في آخر الفصل عند النافذة، ينظر إلى المعلّم بيقظة وانتباه، لا يتباهى بنفسه أبداً، مترناً جداً، يشاهد ما يقع من أحداث، ولا يقحم نفسه فيها ألبتة؛ إذا عزم على أي شيء فعله، كان رزيناً، من خلقه ترك ما لا يعنيه، يراقب عن بعد ولا يُقحم نفسه، دائم التفكير، بعيد الغُور، الأدب والهدوء شيمته.

أنا بوصفي تربية أفخر به، فلما قام به من إنجاز في التربية والتعليم في تركيا وأنحاء العالم كله دورُ الرائد في تعريف العالم كلّ ببلدنا وأمتنا، فما قام به يكفي لكي أفخر به".

ولم يكن يقتصر تميزه على أثرابه في سلوكه وأفعاله فحسب، بل هناك مواقف أخرى تظهر هذا التميز؛ استيقظ ابن السابعة أو الثامنة ذات ليلة قائلاً: "ليكن يا رسول الله"، وكانت أمّه بجواره حينئذ، فأذهلها ذلك، ومضى على هذا ليالي عدّة، فقلقت وخافت عليه، فأخبرت زوجها رامت أفندي؛ وذات ليلة راح رامت أفندي وزوجه يراقبان ما يجري، فتكلم فتح الله وهو نائم، لكنهما لم يفهما شيئاً مما تحدّث به، فلما استيقظ سئل عن هذا، فلم يقل شيئاً، وأغلق الموضوع.

عُني الفتى بالعبادات منذ نعومة أظفاره، وتلك ميزة أخرى، ففي العاشرة سأله أمه: أين كنت يا بني، لقد قلقت عليك؟ فقال: في المسجد

يا أمي، صلّيت سبعين ركعة، فسألته: "وماذا كنت تصلي يا بني؟"، فقال: قضيت الصلوات الفائتة؛ وفي الليالي المباركة كان يعود إلى البيت متأخراً، فتقول أمّه: "إمام المسجد عاد مبكراً ونام -تشير إلى زوجها- فلماذا تأخرت أنت؟" فيقول: "ما زلت أصلي يا أمي". تعلّم الصلاة في الرابعة فواظب عليها، وكانت حليته، فكلما وجد فرصة تجمل بها، فكانت قرّة عينه في الصلاة.

في أضرّوم: بين طلب العلم والمعاناة

حفظ الفتى القرآن الكريم عام ١٩٥١م، وكان إذا حفظ ورده راح يساعد أمّه في البيت أو عكف على الكتب يقرأ ويقرأ، لقد قرأ كتب أبيه كلّها لا سيما كتب حياة الصحابة الكرام؛ فهو يتقن قراءة الكتب العثمانية منذ صغره، وفي هذه الفترة أخذ عن والده اللغة العربية والفارسية، ولما حفظ القرآن، أخذ التجويد عن الحاجّ صديقي أفندي في "حسن قلعة"، ولم يكن له مسكن هناك؛ فكان يمشي كلّ يوم مسافة ٧-٨ كيلو مترات من ألّوّار إلى حسن قلعة.

ألّقى الأستاذ فتح الله في تلك الحقبة أول موعظة، فكانت نموذجاً مهماً كشف عن غزارة علمه ومهارته الفذة في الخطابة؛ كان أبوه رامز أفندي يعظ الناس في رمضان بعد الإفطار في مسجد قرية ألّوّار، فتأخّر ذات ليلة، وكان فتح الله يغدو إلى المسجد مبكّراً، وعمره آنذاك أربعة عشر عاماً؛ فاجتمع المصلون، فإذا بوجيه من ألّوّار يحظى باحترامهم جميعاً يُدعى كاظم أفندي ينظر إلى الفتى فتح الله، فتلقّي أعينهما، فينهض كاظم أفندي ويلبس فتح الله جبة رامز أفندي وعمامته في دهشة غمرت المصلين وفتح الله أيضاً؛ فسّه أصغر من أن يقف مثله ليعظ هذا الحشد، بل إنّه لم يكن يطول كرسي الوعظ، فحملوه وأجلسوه عليه؛ وما إن شرع في الموعظة حتى أخذت الجماعة -التي لم تجد تفسيراً لتقديم هذا الفتى لكرسي الوعظ- تنصت إليه بذهول، وكم عجبوا لهذا

الصوت الذي يدوي من على كرسيّ الوعظ، فكان لموعظة الفتى أبلغ الأثر على الجماعة.

أتم الفتى دراسته في ألّوَارَ ولمّا يقرّر والده رامز أفندي ماذا سيفعل، فقال الشيخ ألّوَارلي أفه: علينا أن نعلّم هذا الفتى، فبدأ فتح الله يدرس اللغة العربية في أرضروم على يد سعدي أفندي حفيد الشيخ ألّوَارلي أفه؛ ورغم أنّه شابّ مستقيم نزيه يكبر فتح الله بـ ٥-٦ سنوات إلا أنّه كان قصير الباع قليل الخبرة في أساليب التدريس؛ فلم يكن ليروي ظمأ فتح الله؛ وكان فتح الله يتردد حينئذ على قرية ألّوَار لئلا ينقطع عن مناخ الشيخ ألّوَارلي أفه.

وصف الأستاذ فتح الله نظام مذاكرة الدروس فقال: أذاكر دروسي الأول فالأول، أقضي الليل في المذاكرة ولا أنام إلا قليلاً، أستضيء بشمعة، فلا حيلة لي سواها، ولا تمر ليلة دون أن يمرّ المعلم بي يتفقّدي خفية، فيسعد بي كلما رأياني أذاكر.

توفي جدّه شامل أغا وجدته السيدة مؤنسة في ساعة واحدة عندما كان يدرس في أرضروم عام ١٩٥٤م، فحزن لفقدتهما كثيراً، يقول: "بكيت أياماً وليالي، دعوت ليل نهار: اللهم ألحقني بجدي وجدتي لأراهما... لم أعتدّ على فراقهما حتى الآن، فكلما تذكرت واحداً منهما تظلى قلبي على مثل الجمر، وتأثّرت كثيراً؛ وفي هذا ما يبين عن منزلة جدّه وجدته وأهميتهما في حياته.

وقعت حادثة أخرى في هذه المرحلة الدراسية، فزلزلته؛ توفي الشيخ ألّوَارلي أفه... انقشعت سحابة العناية التي أظلت حياته العلميّة والروحية... وهو يصف وقع وفاة الشيخ عليه، فيقول: "كنت في ذلك اليوم في ألّوَار،

وأظنه وقت الضحى، وبينما كنت أستجمّ متكئاً على أريكة في ردهة المنزل، إذا بي أسمع صوت هاتفٍ، إنه ليس بنداء بل هو صراخ! صراخ أصك مسمعي بقوله: "مات أفه!"؛ ففزعت، وأخذت معطفي، وهُرِعت إلى بيت الشيخ، ولما بلغت البيت باغتتني الفاجعة، فالشيخ ألّوألّي أفه مات حقاً حقاً... فقد ترك فراغاً أثى له أن يملاً من بعده! أيام وشهور من الأئين والنحيب... أما مقلة الروح فما جفت مآقيها حتى اليوم".



قبر شامل أغا جد الأستاذ فتح الله وجدته مؤسسة هانم في قرية قُورُوجُق بمدينة أرضروم

في هذه الفترة رَحَلَ والد الفتى فتح الله عن قرية ألّوار، ليصبح إماماً برهةً من الزمن في قرية "أَرْتُرُو".

واستقرّ الفتى بمسجد "قُرْشُئْلُو" بمدينة أرضروم في مدرسة كان يُدرّس فيها سعدي أفندي من قبل، مدرسة صغيرة سَقَفها خشب، يقيم فيها خمسة طلاب أو ستة؛ وقد عانى فتح الله كثيراً، ورغم المشاق التي جابهته

إلا أنّه واصل طلب العلم، يحكي عن تلك الفترة فيقول: "كان لدينا موقد غاز، نطهو طعامنا ونأكله في غرفة نومنا؛ كان الطلاب الموسرون يغتسلون عند الحاجة في حمامات "قريب جُشْمَه"، أمّا الفقراء فأحياناً كانوا يحصلون على تذاكر مجانية، وإلا تجشّموا الأمرين، وأنا منهم، فكم كنت أغتسل في المراحيض في الشتاء القارس، فلتصق قدمي بالجليد، فأغسل واحدة وأضعها على الأرض ثم أغسل الأخرى، إن أنس لا أنسى الماء البارد وأنا أصبّه على رأسي، كنّا حقّاً في ضنك وضيق؛ ولهذا اضطر الفتى فتح الله لقبول مكافآت على ختمه القرآن الكريم أثناء دراسته، ولطالما ضاق بهذا الأمر، كان يرى أن ما اضطر لأخذه لاستكمال دراسته وهو شابٌ ضرورة، والأصل عدم الجواز؛ فلما عُيّن إماماً وتقاضى راتباً ردّ ما أخذه وهو في أرضروم، وأرسله مع أخيه حسبي عندما جاء يزوره.

ويسترعي الانتباه ما ذكره حافظ سعدي قايدخان زميل الأستاذ فتح الله عن الحياة في المدرسة بجامع قُرْشُنْلو، يقول:

"التحقت بمدرسة قُرْشُنْلو عام ١٩٥٣م، كان الأستاذ فتح الله آنذاك طالباً فيها، فتعرفت عليه، كانت المدرسة يومئذٍ مهملة، ومن يرعى الطلبة هم قلة من ذوي الغيرة على الدين؛ لم يكن يُطهَى في المدرسة سوى البطاطس، وكانت كل غرفة تطهو طعامها بنفسها بالتناوب، وكان الأستاذ فتح الله هو من يطهو دائماً في غرفته، وكان يفتح شهيتي عند كلّ طعام ويقول: "طهوت لك طعاماً، ستأكل من ورائه أصابعك"؛ فنظن أننا سنأكل طعاماً مختلفاً هذا اليوم، فإذا بالبطاطس أماناً مرة أخرى، إلا أنه كان يطهو البطاطس كلّ مرة بطريقة جديدة، يخدم نفسه بنفسه، لم أره قطّ يأمر أحداً أن يفعل له شيئاً، يخدم الآخرين ويساعدهم ما استطاع.

كان ينتقد ما رسب لدى العامة من أخطاء بلا تردد ولا وجل، لا سيما ما يبالغ فيه من حكايات يحب الناس قراءتها وسردها، تجدده يفنّدها على الدوام، ويقول: إنها أكاذيب؛ كنا نستغرب مواقفه حينئذ؛ وتمضي السنين وها نحن نوقن أنه كان على حق.

لا أعلم أحداً مثله يحافظ على هيبة العلم؛ كنا إذا حضرت جنازة يلتمس الناس منا أن نقرأ مقابل شيء من المال، فكنا نتظر هذا اليوم بفارغ الصبر؛ فمعظمنا من الفقراء المعوزين، لكن الأستاذ فتح الله لم يكن ليذهب رغم شدة عوزه، بل كان يحاول منع من يذهب، وأحياناً كان الجدل يحتد ويحتدم في هذه الأثناء حتى لكأنه شجار.

ملا بسه نظيفة جداً، ولا يسمح لأحد باستخدام أغراضه؛ فاهتمامه بأغراضه لا يخفى، فما كنا نهمله كان هو يعيره اهتماماً جماً؛ وكان إذا رأى شيئاً جديداً لم يأل في تعلّمه تفصيلاً، وله ميزان حسّاس في التعرف على الناس.

كان موجّه المدرسة حسّاً ومعنى، ولا أحد يتطلع إلى أن يقارن نفسه به في هذا، فنحن جميعاً أذعنّا بذلك ولم يفرضه علينا، كان مهيباً تستحوذ هيئته على من حوله وتفرض عليهم احترامه، لا طاقة له بتحمل الظلم ألبته، فله موقفه ممن يظلم أيّاً كان الظالم، وكان يحثنا أيضاً على فعل هذا".

تلك الشمائل جاء ذكرها في يوميات الأستاذ حاتم صديق الأستاذ فتح الله، وزاد عليها تواضع الأستاذ فتح الله وعنايته البالغة بالنظافة، يقول: "كنا نحضر الجناز لنقرأ القرآن بشيء من المال، أما فتح الله فكان يأبى، طلبنا العلم أولاً عند سعدي أفندي حفيد الشيخ ألوارلي أفه محمد

لطفني أفندي، فلما التحق بالجيش تحوّلنا إلى الأستاذ عثمان بكتاش؛ فعرفني والدي على الأستاذ فتح الله منذ أن التحقت بالمدرسة، قال لي: "هذا فتح الله بن رامز أفندي، سيكون عوناً لك"، قال هذا وذهب وكأنه يستودعه إياي؛ فكنت أذهب معه إلى الدروس حتى بعد أن انتقلنا إلى الأستاذ عثمان؛ ولا أتذكر أنني أدت صلاة بدونه قطّ، كنت ظلّه الذي لا يفارقه أينما ذهب، كان الأستاذ فتح الله عاكفاً في المدرسة يومئذ، لكنّه لم يكن في عزلة عن العالم الخارجي.

كانت النظافة من أبرز شمائل الأستاذ فتح الله أثناء دراسته، فملابسه نظيفة دائماً، وله فضل عناية بنظافة مسكنه، بينما كاد مفهوم النظافة يكون معدوماً في المدارس يومئذ، رأيته مراراً يشمر عن ساقيه، وينظف المراحيض، وكان ينظف داخل المدرسة وخارجها جيّداً، له حسّ مرهف، فهو يشمئز من أدنى شيء، إلا أنّ هذا لم يحلّ دون تنظيفه لمراحيض المدرسة.

لم أفارقه أيام الدراسة حتى رحل إلى "أدرنه"، وكان يترك المدرسة أحياناً ويذهب، فكنت أتوسل إليه كثيراً ليعود، وأحياناً كنت آتي بسريره دون علمه، فإن لم أقوَ على شيء من هذا حملت سريري ولحقتُ به أينما ذهب؛ كان يعظ هنا وهناك، فأتتظره حتى ينتهي لنعود معاً إلى المدرسة، قضينا أياماً كلّها ذكريات جميلة، بل لعلّها أجمل أيام حياتي.

قضى الأستاذ فتح الله مدة في مدرسة مسجد "قُرشُئلو" ثم غادرها إلى مدرسة مسجد "كَمْخان" إثر خلاف مع سعدي أفندي، فما انقطع عن طلب العلم رغم كلّ المشاق.

في هذه الفترة وقعت واقعة أظهرت مدى الاحترام والأدب ورهافة الحس لدى ابن الخامسة أو السادسة عشرة: "كانت المدرسة التي أوى

إليها مثل مدرسة "قُرْشُنلو" لا تتسع إلا لخمسة طلاب أو ستّة، فإن طرقهم ضيف لم يتسع المكان للنوم؛ يحكي الأستاذ فتح الله ما حدث معه وهو يحاول أن ينام في مكان ضيق، يقول: "جئت لأنام فإذا بقدمي بمحاذاة رأس أحد زملائي، فكرهت ذلك؛ لما أنه لا يليق بزميلي، أمّا الجهة الأخرى ففيها الكتب، ويستحيل أن أمدّ قدمي تجاه الكتب، والجهة الثالثة هي جهة القبلة، فليس أمامي سوى الجهة التي إليها قرية فُورُوجُق لأمدّ بها رجلي، فخشيت أن أمدّها ويكون أبي هناك، فأسيء بذلك أدب معاملة الوالد؛ فقضيت عدة ليالٍ مستيقظاً لأنام؛ وأشير هنا إلى أنني لم أمد قدمي في حياتي جهة قرية فُورُوجُق مسقط رأس والدي ومثواه، وهذا من معاني احترام الأبوين عندي".

استمرّ الأستاذ فتح الله ستة أشهر في تلك المدرسة، واضطر لمغادرتها عندما ضم مؤذن المسجد نصيب المدرسة لبيته، ثم التحق بمدرسة "طاش مسجد"، وسرعان ما غادرها لضيق بعض من فيها به.

واجه الأستاذ في رحلته العلميّة عقبات كثيرة بسبب السّكن، فعانى أيّما معاناة؛ إذ من المستحيل على شاب عزّب إذ ذاك أن يستأجر منزلاً في أرضروم، ثم عثر على كوخ صغير لحذاء التحق بالجيش، فأبرم معه عقداً، لكنّ الحذاء نقضه، ويصف الأستاذ فتح الله الموقف فيقول: "وقفت على قارعة الطريق، حقيبتني بيدي، ولا مأوى لي".

وكان الفرَج في كوخ صغير آيل للسقوط في مسجد الأحمدية بجوار مسجد مُراد باشا، كان المسجد قد أهمل، فلا أحد يرتاده، وغدا محرابه الذي فيه من التجاويف الكثير مأوى صغيراً بعد أن قُسم منذ حين، فبنى الأستاذ فتح الله وزميله "ذو النور" جداراً، ورفعاه قليلاً، وأحضرا مدفأة

صغيرة، وهكذا حُلَّت مشكلة المأوى؛ وما زال الأستاذ فتح الله يقيم ههنا أثناء الدراسة حتى لحق بأدرنه، ورغم تحذير كثيرين لهما من أن جدارهما عُرضة للسقوط في أي لحظة؛ لم يصغيا إلى أحد، وأنهى الأستاذ فتح الله دراسته، والكوخ قائم، وظلَّ يؤوي كثيرًا من الطلبة أمداً بعيداً بعدهما.



مدرسة مراد باشا التي درس فيها الأستاذ فتح الله كولن

ترك الأستاذ فتح الله سعدي أفندي وذهب إلى الأستاذ عثمان بكتاش، فدرس عليه قرابة عامين وهو من هو في النحو والصرف، والفقه وأصوله، وغيرها من علوم الشريعة، فمفتي المدينة كان يستدعيه إلى مكتبه ليستشيرَه كلما عرضت له نازلة. ولما رأى في تلميذه الجِدَّ والاجتهاد نقله إلى مستوى أعلى، وقال: لا ينبغي أن نشغلك بهذه الدروس الابتدائية، عليك بكتاب الملا جامي^(١٢)، وراح يدرس في هذا المستوى مع من لهم قَدَم سبق في العلم والتركية أمثال الأستاذ محمد قِرْقُنْجِي.

(١٢) كتاب "الفوائد الضيائية" في الصرف والنحو، لنور الدين عبد الرحمن بن أحمد الأديب الفيلسوف المشهور بـ "الملا جامي" (١٤١٤-١٤٩٢ م).

كانت علاقته بمدرسته وطيدة غير أنه لم يُغفل الزوايا بتاتاً، فتربيتها ظاهرة عليه في مراحل حياته كلها منذ أن بدأ مع الشيخ ألوازلي أفه، ولما توفي لحق بزاوية الشيخ القادري راسم بابا، فعني به الشيخ كثيراً، حتى راجت إشاعة بأنه سيزوجه ابنته، فترك الزاوية ولم يعاود؛ لكنه استقام على آدابها وتربيتها، فالتصوف عنصر رئيس في حياته وفكره، يقول: "اختمرت روحي في الزوايا منذ الصغر، وما زال أثر المدرسة والزوايا في حياتي سواءً ككفّتي ميزان".

وكان يستثمر وقته بعد الدراسة جيّداً، فنسيج حياته في منتهى الإحكام، كان يمارس الرياضة؛ فهو نشيط مرن، واعتاد زيارة مقابر الصالحين بأرضروم في جبهة الليل دائماً، يقرأ القرآن على الموتى هناك؛ كان فتى مقدماً لا يهاب شيئاً، يعود من المقابر في غيّه العسق فيمر بأماكن يخاف الناس منها.

وله فضل عناية بملابسه في شبابه، بل هذا دأبه في حياته كلها، فكان لباسه نظيفاً أنيقاً رغم الصعوبات، يقول: "كثيرة هي الأيام التي لم أجد فيها طعاماً، لكنني لم ألبس بنطالاً دون كيّ قطّ، ولا حذاءً دون تلميع، وإذا لم أجد مكواة وضعت بنطالي تحت الفراش، فإذا به كالمكوي من الثقل؛ وربما يعجب أصدقائي من هذا، ولا يستطيعون أن يوقفوا بين ملازمتي للزاوية وبين زيادة الاهتمام بملبسي وتطوافي بنشاط، وحتى إن أحد أصدقائي غضب لأنني لا ألبس البنطال إلا مكويّاً، وقال لي كلمة لا أنساها أبداً: "اتق الله يا أخي"، ولم أفهم إلى اليوم ما علاقة التقوى بكّي البنطال".

قد حفظ الله للشاب في فتوته عقْد الروح الذي نشأ وشب فيه، فما خلعه ولا خرج عنه؛ كان في تلك الفترة قد حضر حفل زفاف مرّتين:

فبينما كان يشاهد في الأولى الثمالي جاءه أحدهم فلطمه وطرده قائلاً: "ماذا تفعل هنا؟!"؛ وفي الثانية لما رجع طرق الباب فلم يسمعه والده مع أنه خفيف النوم، فبات مرغماً على الانتظار في الثلج حتى الصباح؛ فكانت له في هاتين الواقعتين عبرة، فغدا في شبابه حذرًا أيما حذر إزاء ما يفتح أمامه بابًا إلى المعاصي.

عرف الفتى فتح الله "رسائل النور"^(١٣) وهو طالب بأرضروم، كان الأستاذ محمد قرّنجي قد دعاه إلى دروس رسائل النور، يوم أن زار "مظفر أرسلان" أرضروم في طريقه إلى سيواس وأرزنجان، وكان الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي كلّفه بهذه المهمة: "طوّف في الشرق"؛ أخذ الفتى بما سمعه في أول درس وبمن حضر أيضًا لا سيما أنّه رأى فيهم حياة الصحابة خاصة الصّدق والزهد، فتأثّر كثيرًا بهذا، ولازم الدّرس رغم اعتراض أستاذه سعدي أفندي وعثمان بكتاش، يقول: "كان زهد طلاب رسائل النور يفيض عليّ بمشاعر متنوّعة، علاوة على تعمقهم في العبادات، فصلاّتهم ودعائهم غير ما عهدتُهُ من غيرهم"، وبلغت سعادته أوجها عندما أقرّاه الأستاذ النورسي السلام في إحدى رسائله إلى أرضروم.

كان لرسائل النور وقرائنها بالغ الأثر في حياته، ففي ليلة مباركة بمسجد لآله باشا صلّى العشاء، وحضر دعاء ختم القرآن ألف مرة ومرة^(١٤)، ثم صعد إلى مقصورة المسجد يتضرع ويدعو الله أن يُلحّقه

(١٣) كليات رسائل النور التي ألّفها بديع الزمان سعيد النورسي تضم تسعة أجزاء سجل فيها الأستاذ النورسي كل ما استلهمه من نور القرآن الكريم من معاني الإيمان وأملها على محبيه في ظروف عسيرة بقصد إنقاذ إيمان الناس في هذا العصر العصيب بإحياء معاني القرآن ومقاصده في النفوس والعقول والأرواح.

(١٤) عادة سنوية في أرضروم يختم الناس فيها القرآن معًا ألف ختمة وختمة، ثم يدعون عقب تلك الختمات في مسجد جامع بالمدينة.

بكتائب طلاب النور، يقول: "ما إن صليت حتى وجدتني قد امتلأت شوقاً ولوعة ولهفًا لا يوصف، تضرعت إلى الله بكل كياني: "اللهم لا ملجأ لي إلا إليك، فتقبلني فيمن تقبلت من هؤلاء الإخوة، واجعلني منهم، وحَبِّبِ الخِدْمَةَ إِلَيَّ، لأهب رُوحِي لها، ولا تجعلني بينهم عابر سبيل".

ابتهلت تلك الليلة حتى السَّحر، بكيت وجأرتُ وفاضت عيناى حتى الصباح؛ -ما وُقِّتُ الدعاء بمثل هذا الحال في عمري إلا مرة أو مرتين- وما دعوت الله ﷻ في ذاك اليوم بغير هذا، وما رغبت إليه بشيء سوى قبول الدعاء". وفي صبيحة تلك الليلة التقى بزميله في الدراسة الأستاذ حاتم عند باب المسجد، فقَصَّ عليه الأستاذ حاتم رؤيا رآها بالأَمْس، وكأنها بشرى بقبول الدعاء، قال: "رأيت الأستاذ النُورسي الليلة، وكان يرسل لك رسالة ومعها جرةٌ مملوءة بالجوز".

ورحل من أَرْضَروم إلى مُدُنِ أَمَاشيا وطُوقَات وسيواس عام ١٩٥٧م ينصح ويعِظُ؛ فكانت تلك فرصته للتعرف على أهل الأناضول عن كُتُب، ثم عاد إلى أَرْضَروم مرةً أخرى.

أدرنه: بذرة في رحم الأرض

يحجّد والد الأستاذ فتح الله أن يعمل ابنه خارج أرضروم بينما كانت أمّه تضرّ به وتكره فراقه، فتقرّر أن يذهب إلى أدرنه حيث أقارب والدته، ومنهم حسين طوب، وهو إمام هناك؛ اتجه فتح الله إلى أنقرة أوّلًا، ومكث فيها بضعة أيام في منطقة "الحاج بُيرام ولي" الطيبة وأحبّها حبًّا جمًّا، وزار النائب بمجلس الشعب السيد مصطفى زَرَن أحد أقارب والده، وبات عنده ليلة؛ وكان في تلك الأيام يتابع مسابقة وزارة الأوقاف للوظائف، ثم اتّجه إلى إسطنبول، ونزل في فندق "أرضروم" بسرّكجي الذي يسكنه أبناء مدينته وبات فيه بضعة ليالٍ؛ ثم وصل أدرنه ذات ليلة، فنزل في فندق عند مسجد "الشرفات الثلاث" الذي غدا إمامه بعد ذلك؛ وفي الصباح قابل الأستاذ حسين طوب، فذهب به إلى المفتي إبراهيم أفندي، لكنه رآه شابًّا فاستهان به، وقال: لا بد أن أمتحنه، ففعل ووظّفه وقال: "ما زال يافعًا، لكنه أجاد تكوين نفسه".

وفي رمضان تكلّف دار الإفتاء بأدرنه طلاب المعاهد الشرعية وحفظة القرآن الكريم من المحافظات المجاورة بالإمامة، ويتعهد الأهالي بالمسكن والمطعم وشيء من المال، فإذا انقضى شهر رمضان عاد كلّ إلى مسجده، ويُعرّف هذا بنظام "إمامة رمضان"، فعُيّن الأستاذ فتح الله إمامًا في شهر رمضان في مسجد اسمه "آق مسجد (المسجد الأبيض)؛ فأعجب المصلّون بما رأوا في خطابه وعلمه أثناء دروس ما بعد الصلاة؛

فلما انقضى شهر رمضان ذهب بعض وجهاء الحيّ إلى الأستاذ حسين طوب، وطلبوا منه أن يساعدهم في استمرار الأستاذ فتح الله بهذا المسجد، ففعل، ويومئذ بدأت رحلة الأشجان والمعاناة، ولم تمض مدة وجيزة حتى غدا معروفاً في أدرنه كلها بوعظه ودروسه، شابّ يافع لكنّه أثر بوقاره وأخلاقه أيّما تأثير في مَنْ جلس واستمع إليه؛ نعم كان الأهالي يمدّون يد العون لأمثاله إلا أنه أبى أن يأخذ منهم شيئاً.



الأستاذ فتح الله والأستاذ حسين طوب في أدرنه يوم مسابقة المصارعة بقرقینار

وفي تلك الفترة عقد امتحان الوعاظ، فسافر الأستاذ فتح الله إلى أنقرة، ومكث بها خمسة عشر يوماً، ثم عاد إلى أدرنه، فأبلغ مصطفى زَرَن دار الإفتاء بأدرنه بنجاحه في الامتحان؛ فتقدم الأستاذ فتح الله بطلب لوزارة الأوقاف بأنقرة، ليكون مفتي أدرنه، فرفضت لأنه لما يخدم العسكرية بعد، وعُين إماماً لمسجد "الشرفات الثلاث"، وسرعان ما صاغ لنفسه عقد حبّ واحترام هناك؛ ولما كان مسجد "الشرفات الثلاث" في مركز المدينة كان يأتيه وجهاء أدرنه وبعض المسؤولين أيضاً؛ ويعلن

الأستاذ فتح الله بدايةً عن موضوع موعظته؛ وكان في معرفته وإحاطته بتفاصيل الموضوع -في الاقتصاد أو العدالة أو الحقوق أو علم الاجتماع أو غيرها- ما أكسبه تقدير المصلين جميعاً.

استأجر منزلاً في زقاق مسدود، وذلك في فصل الصيف، فكانت النسوة يجلسن على أرصفة الزقاق من الضحى حتى جبهة الليل؛ فكان يضيق ذرعاً بذلك عند ذهابه إلى المنزل وإيابه منه، وأبدى بعض من يوقره من أهل الحي رغبتهم في مصاهرته؛ فغادر الحي إلى نافذة في مسجد الشرفات الثلاث، عرضها متران، وعمقها متر ونصف، فوضع بها أمتعته: كتبه، وبطانيتين، وطبقين، وكوباً، وملعقة؛ يقول: "تجافيت عن كل ما يبعث على الكسل، فبدأت باتخاذ ما يلزم لتحقيق هدفي على أتم وجه".

لم يتخل الأستاذ فتح الله عن سمت حياته هذا حتى في قرّ أدرنه القارس، وزهد في أكل ما له دسم، فعكف على العلم، وغني بمن حوله. كانت الحياة الروحية في أدرنه تكاد تقفر؛ فهجر النوم واعتزل في نافذته، وراح يني "دنياه الصغيرة".

ويذكر صديقه الأستاذ حاتم مثلاً لتربية النفس عنده، يقول: "كثيراً ما كنت أزور الأستاذ فتح الله في مرحلة رياضة النفس؛ فلم أره يأكل، وإذا برّح بي الجوع قال: هناك بعض الطعام، كُل منه، فأدعوه لتأكل معاً، فيأبى؛ وأحياناً كنت أفلده فلا آكل؛ وغالباً ما كنت أكل ما في المزود من طعام. وبينما هو في حديقة المسجد ذات يوم إذا برائحة البيض المقلي تزكم الأنف، وسرعان ما تذكر أرضروم، والبيض الذي كانت تطبخه له والدته في التُّور، وبيننا نحن على ذلك إذا بالسيدة خيرية -عجوز صالحة ذات غيرة على الدين، كان الأستاذ فتح الله عندها كأحد أبنائها-

قد طهت بيضاً، وقدمته للأستاذ فتح الله، وكان بطني يقرقر، فانتظرت أن يدعوني لنأكل، ومضى وقت طويل ولم يفعل، فلم أتحمل فقلت: هيا نأكل هذا البيض قبل أن يبرد، فقال: كُلْ، واطرك لي منه، فإني أحتاجه"، فما أكل رغم إصراري عليه، فأكلت منه؛ وأمضى الأستاذ فتح الله ثلاثة أيام يسخن فيها البيض ويشم رائحته ثم ينتحي جانباً من الحديقة، ثم يردّ البيض دون أن يأكل منه لقمة، ثم عرفت أنه كان يروض نفسه بشم ما تشتهيّه دون أن يأكله". هذا تأويل الأستاذ حاتم، وربما أنه فعل هذا ليسلي نفسه بشيء يذكره بوالدته.

غرض عليه الزواج كثيراً في أدرنه سواء من أقاربه كالأستاذ حسين طوب أو من أصدقائه، فأبى، وكم غرض عليه في سنوات لاحقة، فكان يأبى، ولعل تفسير هذا في قوله: "لا يعلم نيتي وما في أعماق قلبي إلا الله، فضلت أن لا يشغل عقلي شيء سوى خدمة الدين والدعوة، ميزاني دقيق وحساس فربما تضيق به النساء، وهذا أيضاً كان له أثر كبير في عزوفي عن الزواج؛ قررت منذ البداية أن أحب نفسي لخدمة الدين".

حياته في الشريعة كحياة السمك في الماء، ضبطها بميزان الشرع وآدابه؛ مثلاً: لما وصل أدرنه كان أول ما قام به التحقق من طريقة ذبح الحيوانات، فلما رآها مخالفة لأحكام الشرع ما أكل فيها لحمًا قطّ.

مثال آخر يكشف دقة موازينه يومئذ، يحكي الأستاذ حسين طوب أنه رآه يشتري الشمع من ماله ليضيء به نافذة المسجد التي يسكنها، ليقرأ في الليل؛ فقرر أن يتخذ له مصباحاً يضيء النافذة، وأقل ما في هذا أن يرفع عنه المعاناة أثناء القراءة، فأتى بالكهربائي، لكن الأستاذ فتح الله رفض قائلاً: إنها كهرباء المسجد، والوقف هو من يدفع، وهو لا يحل لي".



نافذة مسجد الشرفات الثلاث التي أقام بها الأستاذ فتح الله

أنهكته ظروف الحياة
الشاقة، فضعف ومريض، وقضى
خمسة عشر يوماً في المستشفى؛
وتضاعفت بُرحاؤه لما بلغه مرض
والده؛ ففاضت مشاعره على لسانه
بأشعار تحكي أشجاناً كابدها في
تلك الفترة.

لقي الأستاذ فتح الله ما لقي من
افتراء الحساد والحاquدين ومكائدهم
التي حاكوها له، علاوة على تدهور

صحته، فكانت حفاوة الناس بوعظه وتقديرهم له، وحبّ التجار الجمّ
واحترامهم البالغ، يثير حفيظة حسّاده؛ فتآمروا عليه أيام الانتخابات
المحلية، واتهموه بأنّه خالف الصمت الانتخابي؛ فافتحمت الشرطة
المسجد وألقت القبض عليه، وفي الطريق أخذ أحد أفراد الشرطة يشتمه
بقبيح الكلام، فردّ على الشرطي وألقمه حجراً، فهو لا يتحمل شيئاً من
الإهانة، ولا يتهاون في عزته وكرامته؛ وكان مدير الأمن "السيد رسول"
يحضر مواعظه ويعرفه حق المعرفة، فبرّاه وأفرج عنه؛ يقول الأستاذ فتح
الله: "هذا أول اعتقال لي، فامتعضت كثيراً، وأويت إلى نافذتي حزيناً"،
كانت تلك بداية مؤامرات ما زالت تطارده؛ وكلما حصحص الحق ظهرت
براءته كما في المرة الأولى وعاود حياته الخاصة مرة أخرى.

ودافع عنه ورعاه وردّ عنه افتراءات الحاقدين وإفكهم مفتي أدرنه
بعد انقلاب ٢٧ مايو/أيار ١٩٦٠م الأستاذ "يشار طوناكور" الذي أسهمت

مواعظه في تجدد الحياة الدينية في أدرنه؛ لما رأى في الأستاذ فتح الله من علمٍ وجدٍّ، وراح يذكر مناقبه وعلمه في أروقة الحكومة؛ فالأستاذ يشار هو إحدى نقاط التحول الجوهرية في حياة الأستاذ فتح الله، وكان الأستاذ فتح الله يكنّ له كلّ احترامٍ وتقدير، فكان يعظ في مسجد الشرفات الثلاث قبل صلاة الجمعة - كما هي العادة في مساجد تركيا - ثم يدرك الصلاة في مسجد "السليمية" ليستمع إلى خطبة الأستاذ يشار.

إمام ذو عشرين ربيعاً إلا أنّ وضوح أسلوبه في الحوار شهّره في أدرنه، لم يقتصر كالأئمة على الوظيفة فحسب، بل كان يجول ويحاور الفئات كافة بدءاً بالمحافظ حتى رئيس الوحدة العسكرية.

شخصية فعّالة نشطة تحمل صاحبها على فعل كلّ ما يخدم الدين؛ شهد هجمات شتّى الإعلام على الإسلام حينئذ، فكان يقدر ما بُذِل لمواجهتها، ويساند من يواجهها ويدعمهم بما تيسّر، يقول في مذكراته عن تلك الفترة: "كنت أدخر مالي وأشتري به كتباً مفيدة لأوزّعها حسبةً، فكانت تأتي أدرنه نسخة أو نسختان من مجلة "بيوك دوغو" (الشرق العظيم)"، فكنت أشتري منها لتصبح خمساً وأوزّعها؛ أما مجلة "حر آدم" (الإنسان الحرّ) الأسبوعية، فكان يأتي منها خمسة وعشرون، فبلغتُ بها أربعين؛ وهي صوت الإسلام حينئذ، ومثلها "بيوك دوغو" و"سبيل الرشاد"... أجالس من سأعطيه المجلة، ونشرب الشاي ثم أعطيه، فالخدمة في مناخ كهذا شاقّة جدّاً، فهذه أشياء لا عهد لأحدٍ بها، كنت أخفي مجلة "بيوك دوغو" بين صفحات جريدة "الجمهورية"^(١٥)، وأضعها في جيبِي حتى أصل إلى مكان تسليمها، فأسلمها خفية بعيداً عن الأنظار، كان لا بُدّ من هذا ليستمر العمل.

(١٥) جريدة يسارية يومية تركية بدأت تصدر في ٧ مايو/أيار ١٩٢٤م، وما زالت.

في تلك الفترة كان نجيب فاضل^(١٦) ينسج "نسيج الإيديولوجيا"^(١٧)، وكانت كتابات "ييامي صفا"^(١٨) يلفها الغموض بالنسبة لقراء تلك الفترة، ورغم ذلك كنت أقرأها؛ كان الإسلام هو شغلي الشاغل والعالم المثالي الذي تزدان به أحلامي، فظاهري يوحى أنني في عزلة، ولكن الزوايا جعلتني منفتحاً أجيد فنّ العلاقات الاجتماعية حيثما حللت؛ ولمجالستي الكبار الفضل في مهارة التحدث مع الآخرين بسكينة وطمأنينة، فكنت أجالس وأحادث وأحاور الفئات كلّها، خاصة المشايخ وكبار العلماء، فنمت لدي مهارة المحادثة، فكنت أبلغ وأنصح بسهولة ويسر أي شخص مهما كان مستواه الاجتماعي؛ وفي الوقت نفسه حالّ الحياء الشرقي بيني وبين الجراءة على الكبار، فكنت أجالسهم وأحاورهم وقتاً طويلاً بمتنهي الأدب، وأكاد أكون عرفت وجهاء أدرنه كلهم، ولما أبلغ العشرين؛ وكنت أحاول أن أوجه ما منحني الله من قوة روحية في الطرق الإيجابية، فكنت أجالس الناس في المقهى، فنشرب الشاي، وأحاول أن أتحدث إليهم عن مسائل دينية".

ويروي حافظ أحمد أفندي واقعة تكشف عن تأثير أحواله وتصرفاته في الناس فضلاً عن مواعظه، يقول: حاضر رجلٌ كريم في مجلس بين أناس فيهم الأستاذ فتح الله، فأنصت إليه ولم ينس ببت شفة، فلما انتهى الرجل قال له: أنا من تحدث اليوم، لكنك كنت أنت الواعظ الحقيقي.

(١٦) نجيب فاضل قصه كُوزك: من أشهر المفكرين والشعراء والكتّاب الأتراك في القرن العشرين (١٩٠٤-١٩٨٣م)، لُقّب بـ"سلطان الشعراء" لطول باعه في الشعر.

(١٧) نسيج الإيديولوجيا: كتابٌ لنجيب فاضل، عرض فيه حياته الفكرية والحركية.

(١٨) ييامي صفا: مفكّر وروائي وقصصيّ تركيّ (١٨٩٩-١٩٦١م).

ورغم العقبات التي واجهته إلا أنه استقام على نمط الحياة الذي رسمه لنفسه، وذات مرة نفذت نقوده؛ فلم يقدر أن يشتري ولو خبزاً، وبات طاوياً أياماً، وبينما هو يتوضأ وجد خمس ليرات على الأرض، فاشترى طعاماً يسد الرمق، وكفّته حتى استلم راتبه، فزادها خمس ليرات، وتصدّق بالعشر على الفقراء. وذات مرّة صعد المنبر ليخطب العيد والجوع يعتصر أمعاءه، فأكل ملعقة غسل من قعر قنينة كانت عنده؛ ولم يكن يعرف أن العسل لا يؤكل والمعدة فارغة، فعانى من غثيان أثناء الوعظ. رغم كل ما عاناه لم يشك أمره ولو مرّة، ولم يدعه ذلك لتغيير نمط حياته رغم كل المشاق الماديّة والمعنويّة؛ وكأن هذا السلوك لا ينتهجه إلا أفاذا يصنعون تاريخ الحضارة.

كان الأستاذ فتح الله غيوراً على دينه منذ شبابه؛ فعندما طُرح موضوع كتابة القرآن الكريم بالحروف اللاتينية وهو في السادسة أو السابعة عشرة، كتب مقالاً ينتقد فيه هذه الفكرة؛ فروحه مثاليّة جيّاشة حتى إنه ليقول وهو تلميذ صغير بمدرسة مسجد قُرشُونلو: "ليتهم وضعوا الدنيا على أناملِي فأديرها"، كان يجتنب أمور السياسة، ولكن هذا لم يمنعه أن يعترض وتثور ثائرته عقب انقلاب ٢٧ مايو/أيار ١٩٦٠م؛ وللاستاذ يشار الفضل في تهدئته تجاه ما يستنفر طبيعته الثائرة، فلنصائحه أثر بالغ في التخفيف عنه فيما تضيق به نفسه، وكان لرسائل النور أكبر الأثر في تهدئة نفسه الثائرة.

كان لوظيفة "الإمام الملقّن" لمحكوم عليهما بالإعدام في أدرنه أثرٌ بالغٌ في حياته؛ كُلف عام ١٩٥٩م بتلقين رجل اسمه راسم، وكان الإعدام يومئذ علانية؛ فكان يحاول أن يلقنه الشهادة وبعض الدعوات،

فيرد المجرم: "سيأتي أتاتورك، وسنذهب معاً إلى البيت"؛ فالمشهد حزين، لكنّ الناس كانوا ينظرون إليه وكأنه مهرجان أو احتفال، وهذا أيضاً جعل الأستاذ فتح الله يتقطع حزناً.

وألغي الإعدام علانيةً، فأُعيد الثاني -واسمه محمد- بعيداً عن الناس، وكم تأثر الأستاذ فتح الله بالحادثة، يقول: "سألته: تتوضأ؟ فأجاب: نعم، فلما بلغ غسل رجله خارت قواه؛ أتذكر هذا وكأنه اليوم، لم يُتمّ الوضوء، فبدأت ألقنه الشهادة، فلا يستطيع أن يكمل، وكأنما محيت من ذاكرته".

فترة الخدمة العسكرية: التضييق الخارجي والتعمق الداخلي

استُدعي الأستاذ فتح الله للجيش في شهر نوفمبر/تشرين الثاني عام ١٩٦١م، وقد أمضى في أدرنه قرابة ثلاث سنوات؛ فودّعه جمع جمّ يبلغ الأربعين من محبيه عند انطلاقه من "قَرْقُ أَغَاج" إلى المنطقة العسكرية؛ وعلى رأسهم الأستاذ يشار، وحسين طوب، وسالم آريجي الإمام الرئيس لمسجد الشرفات الثلاث، اتجه إلى إسطنبول ثم أنقرة، ومكث فيها ٥-٦ أيام عند السيد صالح أوزجان، وخدم في أنقرة في كتيبة خدم بها عمه من قبل، في السرية الأولى للاتصالات بالكتيبة الأولى بمنطقة "مماق"، لفت الأنظار بجده وانتظامه، فتوطدت صلته بقيادة السرية، علاوة على أنّ بعض معارفه في أدرنه ذو صلة بقيادته، تدرب أربعة أشهر بقطاع اللاسلكي وعمل فيه، ورغم أنه يؤدي الخدمة العسكرية كغيره، لكنه كان يرى أنه لا يؤدي مهمته حق الأداء، فرأى أن طعام الجيش لا يحلّ له، وكذا ملابسه المجانية، فاشترى ملابس عسكرية من أحد طلاب الكلية العسكرية.

اضطربت البنية السياسية عقب انقلاب ٢٧ مايو/أيار ١٩٦٠م، فخطط العقيد طُلُعت آيديمير لانقلاب على انقلاب ٢٧ مايو/أيار، فأشرك ١٥ ألف جندي من منطقة مماق، فوجد الأستاذ فتح الله نفسه بينهم يكابد آلام تلك الفترة العصيبة؛ ولما فشل العقيد سلّم جنوده أنفسهم، وصورّ سلاحهم، وصدر أمر بمنعهم من مغادرة الكتيبة مدة شهرين، فاستغلها الأستاذ فتح الله

في تزكية النفس، يقول: "لك أن تطلق على هذه الفترة "الأربعين"^(١٩)، إنها أول "أربعين" أعيشها دون تخطيط مسبق في الجيش... وقفت فيها نفسي على العبادة، كنت أغدو إلى المسجد مبكراً في ليالي الشتاء الطويلة، فأتعبد إلى جهمة الليل، فصفا عقلي وزكت نفسي شيئاً ما". لقد قطع مسافات روحية مهمة في نهاية هذه التزكية؛ وشهد من التجليات الجليلة ما شهد مما لم يُبْحَ به؛ ثم عاد الجنود لمهمتهم، وعُين هو في قسم "الاتصالات السريعة" وتعلم هناك استخدام الأجهزة اللاسلكية، والكتابة على الآلة الكاتبة بعشرة أصابع.

يحكي الأستاذ فتح الله عن مشاق في الجيش لا تُنسى، وخاصة أول أربعة أشهر بحي ماق، يقول: "عندما أتذكر الجيش أتذكر فوراً أول أربعة أشهر، فلا يمكن نسيانها؛ لم تكن السرر كافية، ففي اليوم الأول نمت أنا وواحد كنت أعرفه من قبل في سرير واحد، أُعطي كل منا بطانية يتدثر بها، كنا ننام دون أن نخلع أحذيتنا لنسلم من التجمد في قَرِّ الشتاء القارس؛ فإن اقتضى الأمر الماء وجدت مشقة عظيمة، لكن بدني كان قوياً آنذاك، فكم وكم اغتسلت في أرضروم في المرحاض، أصب بالكوب المياه الباردة على رأسي وأنا واقف على الثلج؛ كان الجنود يغتسلون معاً بلا مبالاة، فكنت أرفض أن أدخل معهم. وذات مرة أمر الجنود بالتعري في فحص طبي عام، فقال الطبيب: اخلع سروالك، فقلت: "سيدي، ما رأي ما بين الركبة والسرة أحد، ولا أُمي التي ولدتنني"، فقال: امض، فنجوت، وكان الطبيب طبيّاً".

(١٩) مصطلح صوفي معناه: أن يتفرغ الإنسان أربعين يوماً للعبادة والذكر والدعاء مع التزامه بقلة الأكل والنوم والكلام.

مضت فترة التدريب وكانت نحو ثمانية أشهر، وأُقرِع بين الجنود لتوزيعهم على ثُكنهم، فخرج نصيبه مرتين في أرضروم، فأعادوها ثلاثة لثلاثا يكون الجندي في بلده، فكانت في مدينة "دياربكر" في جنوب شرقي الأناضول، فأبى القادة أيضًا، فجاءت في إسكندرون، وبدأت مرحلة مهمة في حياته.

كان القادة هناك ألين من أنقرة، فاستراح بعض الشيء؛ عُيِّن في مركز الاتصالات، فكان يجلس وحده في سيارة مجهزة بأحدث التقنيات يومئذ؛ فأتاح له ذلك أن يخرج ليشترى الطعام، وأن يستمع من خلال أجهزة الاستقبال المتطورة إلى إذاعة القرآن الكريم التي تبث من دول عربية، وأن يعظ قبل صلاة الجمعة بملايس مدنيّة.

ها هو يعيش حرًا نوعًا ما لكنه ماضٍ في تركية النفس التي أخذ نفسه بها في حياته كلّها، وها هو ذا يواصل حياته بدقّة ميزانه الحساس في أدرنه، فهزل جسمه وضعف؛ فقلّمًا ينام و يأكل، فتبين بالفحص مرارًا أن حالته خطيرة، فوُضِع في المستشفى مدة، ثم مُنح إجازة للاستجمام لمدة ثلاثة أشهر؛ فاستطاع أن يزور أرضروم ليرى أسرته بعد غياب أربع سنوات، بل لم يُتَح لهم توديعه يوم أن التحق بالجيش، حتى إنّ أمّه عندما رآته سألته: أنت فتح الله؟ وراحت تعانقه؛ فما كانت أمّه لتعرفه إذ تغيّرت ملامحه في فترة مرضه، وكان فتّى فغدا رجلاً؛ ثم أذنت له شعبة أرضروم بشهر آخر، ف قضى أربعة أشهر فيها، منها شهر رمضان المبارك، فوعظ في مساجد عدة بأرضروم، وذات يوم علّم أن فيلماً يتحدث عن عهد النبي ﷺ سيُعرض في سينما بأرضروم، فأغضبه أنّ امرأة لا وجود للدين في حياتها تمثّل دور السيدة عائشة ؓ؛ فتحدث عن هذا في الموعظة، فثار المصلون

وهاجموا السينما، فحاول أن يشبههم عن هذا قائلاً: "لا تفعلوا، فليس لنا أن نفعل مثل هذه الأفاعيل، علينا أن نعالج الأمر بطرق أخرى مناسبة"، وبأت محاولته بالفشل؛ فانضم إليهم آخرون فصاروا جمعاً كبيراً ومنعوا عرض الفيلم، وتفرقوا قبل أن يحدث ما لا يُحمد عقباه.

وعقدت في هذه الفترة ندوة عن مولانا "جلال الدين الرومي"، وحاضر فيها أساتذة الجامعة، فشارك الأستاذ فتح الله فيها، وألقى كلمة عن حبّ مولانا للنبي ﷺ، فأبهرهم أسلوبه وبراعته في الارتجال وإلقاء الشعر الفارسيّ وشرحه، ودخض زعم من زعم من المحاضرين بأن "مولانا" يتبنى مذهب "بائتيّزم".

وشارك أيضاً في فعاليات إنشاء جمعية لمقاومة الشيوعية في أرضروم، والأولى من نوعها كانت في إزمير.

انتهت الشهور الأربعة فعاد إلى إسكندرون، فوعظ بحماس بالغ، في عدّة مساجد، يرتدي جُبته فوق ملابسه العسكرية ويُلقى الموعظة، يشخص داء الحياة الاجتماعية بأسلوب مثير ومؤثر.

وذات مرّة رغب إليه بعض من في الجيش أن يمدح القائد في موعظته، فمدحه بأنه "رجل قوميّ"، فلما عاد إلى وحدته العسكرية زلّت قدمه وهو يركب، فتكسّرت أضلاعه، وعدّه تنبيهاً معنوياً له حيث ذكر في كرسي الوعظ ما هو متعلق بالأمور الدنيوية ليسترضي فلاناً من الناس.

ثم عاود الوعظ بعد فترة قضاها في الفراش وأثارت هذه الفعاليات قلق أناس، فتحاولوا للضغط عليه، وأخرجوا أصدقاءه المساندين له في مواقف عدّة، وذات مرة خطب الجمعة -ولم يكن يتكلم عن شيء في السياسة- فلما خرج من المسجد وجد الشرطة عند خروجه يحاصرون المسجد،

وكانهم يعتقلون قاطع طريق؛ فذهب إلى قائد الكتيبة وحيّاه بالتحية العسكرية وسلّم نفسه؛ فأفشل خطة من يريدون تكرار أحداث "مَنْمَنْ" (٢٠) وخيّب آمالهم الخبيثة؛ وقبيل خروجه من المسجد سمع جنديًا يقول: اضربوا هذا الوغد؛ فغضب المصلون؛ لكنه سلّم نفسه، فلم يفعلوا أيّ شيء؛ ولا شك أنهم كانوا سيضربونه لو تردّد، فقد أعدوا خططًا تتّم عن حقّهم ونواياهم الخبيثة.



جامع إسكندرون

قُبُض عليه وسُجِن، وكان رأي بعض الضبّاط فيه حميدًا فما كفّوا
عن الحديث عنه، وفيهم نقيب مشهور بشكره، حتى إنّه كان يستولي

(٢٠) واقعة "مَنْمَنْ": حدثت في مقاطعة مَنَمَنْ بإزمير في ٢٣ ديسمبر/كانون الأول ١٩٣٠م، وهي اسم لسلسلة من أحداث خُطّط لها لإقحام المتدينين في المآزق، بدأت بمقتل ضابط احتياطي اسمه مصطفى فهمي قُبيلاني أثناء تأديته للخدمة العسكرية في مَنَمَنْ على يد مجموعة من مدمني المخدرات تحت اسم الشرعية؛ فسُجِن كثيرون إثر هذه الأحداث، وأُعدم آخرون.

على راتب الأستاذ فتح الله ليشتري الخمر، قال عنه أثناء المحاكمة: "فتح الله هو وحدَه المنضبط ويمتاز بأخلاقه العالية في الفرقة، قلّ أن نرى مثله"؛ فكل قاداته في الجيش يشنون عليه في خلقه ووفائه وحبّه لوطنه اللهم إلا من أعمى الحقد عيونهم، فتأثرت هيئة المحكمة بهذه الشهادات؛ فسجن فترة قصيرة مع عقوبة تأديبية يسيرة، ثم أطلق سراحه؛ واستغل سجنه في قراءة كتاب "صفحات" للشاعر التركي المشهور محمد عاكف أرصوي، وحفظ معظمه، وخلال فترة سجنه القصيرة تحسّن سلوك بعض أصدقائه المسجونين معه؛ وقد أذاعت جريدة "الاستقلال الجديد" خبر سجنه وإطلاق سراحه بعنوان "فتح الله حفيد محمد الفاتح".

وكانت طبيعته النشطة تأبى أن تبقى دون عمل يستهدف مثاليته التي جعلت منه إنساناً فعّالاً نشطاً على الدوام ولو في الجيش ذي النظام المحكم، فيوم أن وصل إسكندرون كان عدد المصلين في الوحدات لا يُذكر، لكن سرعان ما ازداد عددهم بمهارته وصدقه في النصيحة والموعظة، وكانت في الكتبية قاعة تُستخدم لعروض سينمائية، فصارت مسجداً تُصلّى فيه الجمعة؛ كلّ هذا والحاقدون ما زالوا يتحينون فرصة لاعتقاله، وليُفسدوا عليه أمره، حتى إن والده لما زاره ألقي القبض عليه لحضوره جلسة دينية.

وتُظهر مواعظه ومقالاته أنّه يقدر الخدمة العسكرية قدرها، وكلما جاءت مناسبة تحدّث عن تقدير الأتراك للخدمة العسكرية، فهي ليست أمراً صعباً ولا شاقاً عليه إلا أن أعداء المثاليات والقيم التي وقف لها حياته فرضوا ظروفاً تسببت له في مشكلات وأزمات مختلفة يومئذ، فهؤلاء هم من جعلوا الخدمة العسكريّة شاقّة ومرهقة؛ ولما أنهى مدة خدمته ورحل

عن إسكندرون عرض عليه صاحب شركة شحن العملَ مديراً للشركة، فرفض ورجع إلى أرضروم.

ولأرضروم منزلة متميزة في حياته الروحية، لكنه آثر الرحيل عنها بعد عودته رغم حبه لها وإصرار أسرته وخاصة أمه على البقاء معهم؛ فالهجرة من مسقط الرأس في سبيل مثالياته من أمهات مبادئه في الحياة إيماناً منه بالهجرة المقدسة التي طالما حدثت الناس عنها؛ فقرر الرحيل عن أرضروم، حتى وإن لم يرجع إلى أدرنه فلا شك أنه سيذهب إلى مكان آخر يخدم فيه الإسلام.

العودة إلى أدرنه وفترة "قِرْقَلَارْ أَلِي": الفسيلة تشقّ الأرض

لأدرنه منزلة متميزة وأهميّة خاصّة في حياة الأستاذ فتح الله، لا سيما مسجد الشرفات الثلاث، ففيه نسج شرنقة حياته الروحيّة والدعويّة؛ ويتحدّث عن سبب عودته إلى أدرنه ومشاعره تُجاه مسجد الشرفات الثلاث، فيقول: "مما حملني على العودة إلى أدرنه حبي الجَمِّ لمسجد الشرفات الثلاث الذي بناه "المعماري خير الدين"، لعلّي أعمل فيه مرّة أخرى، فهو أحب إليّ من مسجد السليمية، ولعلّ هذه الرابطة والولّة لأنّي عملت فيه من قبل، وضمّني إليه وآواني ثلاث سنوات، أو لأموّر لم أفهمها يومئذ، فمسجد الشرفات الثلاث مهد لطفرة رائعة في الهندسة المعمارية ولولاه لما كان مسجد السليمية أعظم مفاخر التاريخ التركيّ؛ ومصيره كمصير العملاق المهموم بأتمته الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي الذي مهّد لفتح إسلاميّ عظيم في الأناضول؛ وبين هذا المسجد والسلطان العثماني مراد الثاني توحّد وتكامل؛ وهذا هو ما حبّب إليّ مسجد الشرفات الثلاث بلا تشوف مني ولا إرادة".

ودّ لو أنّه يعود إمامًا لمسجد الشرفات الثلاث، إلا أنّه عُيّن معلّمًا في مركز لتعليم القرآن الكريم، ولم يتوقف عن الوعظ، فنشرت الصحف خبر تعيينه، وادّعت أنّ تعيينه هذا ليس مناسبًا؛ وكانت الصحف والمجلات قد تناولت محاكمته أثناء الخدمة العسكرية، فذاع أمره في تركيا كلّها، خاصّةً أنّ بعض التيارات راحت تتعقبه خطوةً خطوة.

وبينما كان يعاني
من الملاحقة والتضييق
الأمني، كان يلقي مثل
ذلك من مسؤولين
في مركز تعليم القرآن
فيه تخالف أفكارهم
أفكاره واعترضوا على



المنظر الخارجي لمسجد الشرفات الثلاث

تعيينه؛ وانقضت تلك الفترة العصيبة ببداية أخرى للأستاذ فتح الله؛
مرض إمام "مسجد دار الحديث" فعُيِّنَ هو إماماً مؤقتاً، واتخذ من ركن
في المسجد مسكناً له، وسرعان ما صيّرهُ مدرسة لتعليم الطلبة، فغداً أول
أرضٍ طيبة تنثر فيها بذور خدمة الطلبة؛ وبهذا الصّدّد يلفت الأستاذ حسين
طوب في مذكراته الأنظار، فيقول: "كانت وزارة الأوقاف تقتطع بعض
راتب الإمام السابق لغيابه عن وظيفته، وتعطيه للأستاذ فتح الله الذي قام
بمقامه، لكنه لم يكن يتصرف فيه، بل كان يردهُ بتمامه كلّ شهر للإمام
السابق، ولما سُئِلَ قال: أستاذي شيخ مريض، فهو أحوج إليه مني".

في تلك الفترة عُيِّنَ صديقه الأستاذ الدكتور "سُعاد يُلْدِرْم" مفتياً
لأدرنه، فاستأجراً منزلاً، كانت دقته وحسّه المرهف في حياته هو هو،
ففي مذكرات الأستاذ سعاد يُلْدِرْم ما يكشف عن هذا التميز بوضوح،
يقول: "كلّ أحواله تنبئك أنه شخص متميز، منظم، أنيق، يتحرى الحلال
في مطعمه ومشربه، منزله غاية في النظافة والتنظيم، يهتم به اهتمامه
بمنظره وملبسه؛ ولو قلتُ: لم أره مرتدياً حلة النوم قط طيلة ستة أشهر
قضيها معاً، لكفى في وصف شخصيته الرائعة وعاداته الحسنة".

واصل المواعظ ومدارسة الكتب رغم صرامة الرقابة حينئذ وتناوب الشرطة على المسجد. ورأى واحد ممن يحضر حلقة الدرس رؤيا ألهمت أشواقهم، رأى أم المؤمنين خديجة عليها السلام تشير إلى الخمسة المتحلّقين في الدرس وتساءل المصطفى صلى الله عليه وآله: "يا رسول الله، هؤلاء يسألون: هل أنت عنهم راضٍ؟"، فقال صلى الله عليه وآله: "نعم، أنا راضٍ عنهم عامة... وعن أحدهم خاصّة... وعن أحدهم خاصّة"، وفعلت هذه الرؤيا فيهم الأفاعيل؛ فاستمرت الدروس رغم كلّ محاولات القمع والمنع، وسرعان ما ناف عددهم على ثلاثين.

جاء العيد فقام الأستاذ فتح الله بطبع بطاقة تهنئة، عليها حديث شريف يحض على تمسك المسلمين بدينهم مهما بلغت المشقة والبلاء الذي يتعرضون له^(٢١)؛ فوقعت جلبّة كبيرة، واقتحمت الشرطة المسجد، فاعتقلوه، وسيق إلى التحقيق مرّة أخرى، وكانت أسئلتهم مأساة ومهزلة، مثلاً: ما كل هذا الإخلاص في المواعظ؟! وما السبب في تحمل كل المشاق في سبيل الدين؟ وما الذي يبكيك وأنت تعظ؟ بل سألوه: لماذا تأمر النساء وأنت تعظهنّ يوم الثلاثاء بقولك: "لا ترفعن إليّ أبصاركن"؟! كادوا له ليقعوا به أثناء التحقيق، وشهد ضده محام كان يصلي معه التراويح ودعاه غير مرّة إلى الإفطار عنده، لكنه أنكر أنه يعرف الأستاذ فتح الله، فطلب الأستاذ فتح الله الدفاع عن نفسه، وقال: "سأعقب على السيد المحامي، ثم قيّموا الموقف بناءً على ذلك؛ هذا الرجل صلى معي

(٢١) عَنْ حَبَابِ بْنِ الْأَرْتِّ قَالَ: شَكُونَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بَرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكُعْبَةِ فَقُلْنَا أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلَا تَدْعُو لَنَا فَقَالَ صلى الله عليه وآله "قَدْ كَانَ مِنْ قَبْلِكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهَا فَيُجَاءُ بِالْمَنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نَصْفَيْنِ وَيُمَشَّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ فَمَا يَصُدُّ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ وَاللَّهِ لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّكَّابُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَالذَّبَّ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ". (صحيح البخاري، الإكراه، ١)

التراويح سنوات، والمئات يشهدون، ودعاني أنا والأستاذ سليم آريجي للإفطار أكثر من مرة، وجلسنا في أماكن لا أحصيها وشربنا الشاي معاً؛ فإذا كان صلى التراويح خلف رجل، وأكل وشرب معه على مائدة واحدة، ثم يأتي ليقول: "لا أعرفه"، فيمكنكم أن تقيسوا باقي كلامه على هذا؛ وكان لشهادة رفعت بك في الدروس والمواعظ وقع كبير، إذ كان من قبل ضالاً، ومثار إزعاج للناس جميعاً، قال: "السادة القضاة أنتم أعلم بما كنت عليه، أيام كنت أصبح في "قلعه إيتشي"، فيفزعون جميعاً، هكذا كنت، وأنا الآن كما ترون، تغير سلوكي بفضل هؤلاء، كنت أتردد عليهم، فوجدت ضالتي وعرفت الحق فاهتديت بعد الضلال".

كان محافظ أدرنه يومئذ يفعل ما بوسعه لعرقلة حراك الأستاذ فتح الله؛ فألغى له رخصة الوعظ، ومنعه من التدريس في مراكز تحفيظ القرآن، وهم بحبسه عشر سنوات، ووضعه تحت المراقبة الدائمة، فتحولت أدرنه إلى "كابوس" كما يقول الأستاذ فتح الله، لقد ضيقوا عليه الخناق، فذهب إلى أنقرة في ٣١ تموز/يوليه ١٩٦٥م يلتمس النقل إلى محافظة أخرى، فنقل إلى محافظة "قزقلار ألي". فلقي ما لقي في أدرنه، ورغم ذلك كان يُعنى بالناس فينفق راتبه كله عليهم بل وقته أيضاً؛ ليقبضهم فتنه التنصل من التدين باسم المديّة.

وهذا مؤذن مسجد السليمية خمسة وثلاثين عاماً السيد "نادي أرصوي" سكن مع الأستاذ فتح الله في أدرنه، فوصف شخصيته وحياته المتميزة في مذكراته قائلاً: "دقيق مرهف الحس، أظنني تعلمت النظام وكَيّ الملابس منه. فملابسه نظيفة أنيقة، يعتني بمظهره بين الناس، ولا يلبس ما ليس بمكوي وما كان سيئ المنظر، عنده بنطال رمادي،

يغسله جيّدًا كلّ يومين لعله تقدّر وهو ماشٍ في الشارع أو أثناء قضاء الحاجة مع أنّه يشمّر عن ساقيه عند قضاء الحاجة؛ لا يملك مكوّاة، فيضع البنطال تحت فراشه ليغدو كأنّه مكويّ -وأنا أعجب لهذه الحال وأحزن- فإذا لبسه بدا أنّه كذلك فعلاً، ويظلّ كذلك، ولا أدري أكان ذلك من جودته أم من نوع قماشه؟ كنت أراه دائماً منظماً، أنيقاً، نظيفاً؛ وكأني تطبعت بمثل طبعه في حياته المنظمة ومظهره الحسن". فهذا يكشف عن أن دقته وحسّه المرفه في أيام دراسته ما زالا على حالهما رغم ما هو فيه، ويُظهر شمائل صارت له خلقاً من: نظافة ونظام ودقة وأناقة.

ويقول السيد نادي أرصوي: "منه تعلمت الأدب"، ويكشف في مذكراته عن أدب الأستاذ فتح الله وحسه المرفه واحترامه للصغار ولأترابه ناهيك عن الكبير، يقول: "سكنا في منزل من غرفتين، إحداهما للدراسة والأخرى للنوم، فرأينا أن ننام في غرفة واحدة، وكان في الغرفة سرير معدني، تركته له وفرشت على الأرض؛ فلما تأخّر عن النوم قلت له: أستاذي أتدري كم الساعة الآن؟ حان وقت النوم، نم أنت على السرير وأنا أنام على الأرض، فأبى إلا النوم على الأرض؛ فلما تدثّر باللحاف، كنت جالساً على طرف السرير، فأرق وتقلب يميناً ويساراً، فنظرت فإذا وجهه أحمر وعروق جبهته تكاد تنفجر، ففهمت الأمر، فهو يستحي أن ينام وأنا في الغرفة، فقلت: لحظة من فضلك أستاذي، تفضل، نم على السرير، وأخذت الفراش واللحاف إلى الغرفة الأخرى وتركته وحده، وقلت: إن شاء الله سينام ويستريح".

ولما نزل في قِرْقَلَارْ أَلِي استأجر منزلاً، واقترض ليفرشه بسجادتين، فهما كلّ ما يملك، وكان يدفع أجرته وأجرة منازل الطلاب في أدرنه؛

فعلاوةً على وظيفته كان يتردد على أدرنه عدة مرات كل أسبوع؛ ليتفقد طلابه فيها؛ ولم تكن تحقيقات أدرنه قد انتهت، فلم يَزْعُو الحاقدون عن ملاحقته والتربص به، فاستهدفته الصحافة المحلية بمقالاتها، وحَقَّق معه في خطبة جمعة ألقاها في قِرْقَلَارُ أَلِي، فلم يثبت ما يُدينه، وسرعان ما أخذ البراءة؛ ورغم كلِّ ما كان لم تخبُ جَذوةُ فعالياته ونشاطه؛ يقول: "نظّمنا أنشطة عدّة، ففي منزلنا الصغير الذي يشبه عش البلبل كنا نتدارس كل ليلة، ويأتينا الناس من كل الجماعات، فكان بيننا تآلف وتناغم طيب؛" وعقب مؤتمر دعا إليه الشاعر التركي المشهور نجيب فاضل وجد فرصةً للتحديث إليه طويلاً، فأظهر نجيب فاضل اهتماماً بالغاً به، وكتب بعدئذ عدة مقالات يقرّظ فيها رسائل النور.

مرحلة إزمير: وأزهت الفسيلة

أخذ الأستاذ فتح الله إجازة لزيارة مدنٍ أخرى في الفترة التي كان فيها في قَرْقَلَارْ أَلِي، كانت الإجازة عشرين يومًا، إلا أنها استمرت أربعين، وفي طريق عودته مرَّ بأنقرة وطلب من الأستاذ يَشَار طُونَاكُور مساعد رئيس الشؤون الدينية إجازة عشرين يومًا أخرى، لكنه أوعز إلى الأستاذ فتح الله أن يستبدل به طلبًا يَبِين فيه أنه يرغب بالتعيين في إزمير، فاعتذر الأستاذ فتح الله عن تقديم مثل هذا الطلب، إلا أنه ألحَّ عليه وأوعز إلى أحدهم أن يكتب الطلب، وحمله على التوقيع مستغلًا احترامه له.

ولما غادر الأستاذ يَشَار طُونَاكُور من إزمير إلى أنقرة قال وهو يودّع محبِّيه في إزمير: "سأرسل لكم شخصًا وستسونني"؛ فصدر قرار تعيين الأستاذ فتح الله في إزمير بتاريخ ١١ آذار/مارس ١٩٦٦م، وودَّعه جمع غفير من محبِّيه في قَرْقَلَارْ أَلِي، وبدأ العمل مديرًا في سكن طلاب ثانوية الأئمة والخطباء "كُستانه بَزاري"، وكان السكن الطلابي يعاني من الفوضى؛ فاضطُرَّ بادئ الأمر إلى مواصلة العمل ليل نهار في إدارة السكن فلم يكن ينام سوى ساعة أو ساعتين أملًا في عودة الانضباط إلى السكن؛ يحكي الأستاذ فتح الله عن أيامه الأولى التي قضاها في كُستانه بَزاري قائلاً: "بناءً على تقييمي المبدئي اقتنعت بأنَّه من الضروري ملازمة الطلاب بشكل دائم، فاقترضتُ هذا منِّي أن أصل الليل بالنهار فلا أنام، فحالة الطلاب عمومًا تقتضي ذلك؛ فهزَّلَ بدني كثيرًا إذ قلَّما أتناول الطعام، ورغم ذلك كنت أكتفي بنوم الساعة أو الساعتين في اليوم، وأحيانًا أصل ليلي بنهاري

دون أن أنام، وبينما أشرف على الطلاب وهم نائمون كنت أتجول عدّة مرات في الحمامات والغرف، وإذا كنت أعنتني بالطلاب عن كُثْب كنت أعمل على إصلاح كلّ ما أراه مخلّاً بالنظام".

وضاق بعضهم ذرعاً باهتمام الأستاذ فتح الله بالانضباط عامّة وبعنايته بالطلاب خاصّة؛ فلجؤوا إلى حِيل عدّة، وحاولوا زعزعة مكانته عند الطلاب؛ فأصبح انضباط السكن أمراً صعباً إلى حدّ ما في الأشهر الأولى، وأظهر بعضهم سلوكاً معادياً لدّمائة الأستاذ فتح الله، فاجتمع رئيس الجمعية السيد "علي رضا كُون" بهؤلاء الأشخاص وحذّرهم بقوله: "هذا الأستاذ لا يأخذ من السكن شيئاً ولو لقمة، فلو بدر منكم سلوك يضايقه، طردتكم جميعاً".



جامع كَشْتَانِه بَزاري الذي عمل فيه الأستاذ فتح الله كولن واعظاً، والسكن الطلابي الذي عمل فيه مديراً بين ١٩٦٦-١٩٧٠م

وأخذ أمناء الوقف والطلاب كذلك يقدّرون الأستاذ فتح الله قدره؛ يذكر خليل مَزِيك -وهو من أوائل تلامذة الأستاذ ورابع أربعة أرسلهم

عقب وصوله إزمير لمتابعة الخدمة التي بدأها في أدرنه من قبل -تودّد الطلاب للأستاذ ورأيهم فيه وكذلك موافقه معه بقوله: "قدمت إلى كستانه بزاري في عام ١٩٦٥م، وجاء الأستاذ فتح الله في صيف ١٩٦٦م، كان الطلاب جميعاً ينظرون إلى الأستاذ فتح الله نظرة ريب، كان شاباً يومئذ إلا أنّه كان يبدو وكأنّه شيخ كبير مهيب وقور رزين.

قال لي إبراهيم أفندي إمام جامع كستانه بزاري: "أشعر بشيء ما نحو هذا الأستاذ الجديد، ووصلني خطاب يوصي به"، يعني الخطاب الذي أرسله الأستاذ يشار طوناكُور، ولما لاحظ الأستاذ إبراهيم جوهر الأستاذ فتح الله مما قرأه في الخطاب وما رآه من ورعه، بدأ يوصينا به ويقرّبنا إليه شيئاً فشيئاً، وكنا يومئذ صغاراً؛ فلم ندرك أهمية الأمر، ولم نُعْنَ به كثيراً، لكن ما إن بدأ الأستاذ فتح الله دروسه في التزكية حتى بدأنا نحبه ونقدّره قَدْرَه؛ كان الأستاذ فتح الله يتناول مواضيع عدّة، ويطيّرها بعبق من حياة الصحابة، فحياتهم محور أساس ومضرب المثل في أحاديثه؛ وكان -وهو يسرد الأحداث- يتأثّر فينكي ويكي من حوْلَه، وسرعان ما ألفه الطلاب وأمناء الوقف أيضاً، بل إن الأساتذة الآخرين الأكبر منه سنّاً ممن سبقوه إلى كستانه بزاري بدؤوا في تقديره، ثم ما لبث أن أصبح شخصيّة مرموقة في إزمير.

في شهر رمضان كنت أصلي التراويح بختمة في كستانه بزاري، وكان الأستاذ فتح الله يعظ في مساجد شتّى قبيل صلاة التراويح، فكنا نتناول وجبات خفيفة، فتكفيه لقيمات مما تيسّر على الإفطار، كان يشتري العجين واليوسفي، وكنا نُحضِر الخبز من سكن الطلاب، لنفطّر معاً، كان الأستاذ فتح الله لا يتناول من طعام السّكن، حتى إنه كان يدفع ثمن الخبز، وثمان وجبات من يأتيه زائرًا".

بعد زهاء ستة أشهر من شروع الأستاذ فتح الله في العمل بُني له كوخ في فناء السكن، مِثْران في مترين، لا شيء فيه ولو ماءً، وأصبح هذا الكوخ أرضاً طيبة نُشر فيها بذور أحلام تراءت له وهو يدرُس في مدرسة فُورْشُونْلُو، وتمَر السَّنون ويحكي الأستاذ عن هذا الكوخ وهو يَذكره بشوق في وعظه وحواراته: "كنت أحب كوكبي كثيراً رغم أنه كان صغيراً، فلو مددت قدَميَّ للاستِجاره، ولم يكن به حَمَام، فكنت أغسل يَدَيَّ من مياه البرميل خارج الكوخ، لكن هذه الغرفة الصغيرة كانت من الأماكن التي تُوَسِّسني في خدمة الإسلام بشكل كبير، مكان متواضع بسيط، إلا أنه كان منطلقاً لخدمات كثيرة ستكون فيما بعد، وكان كمورد الماء يعج بالنَّاس على الدَّوام".

وعِلاوةً على عناية الأستاذ فتح الله بالطلاب عن كُتَب، فإنه كان يُلقِي مواعظه في أماكن شَتَّى بمنطقتي بحر إيجة والبحر الأبيض المتوسط وليس في إزمير فحسب، وسُجِّلَت هذه الدروس ووَرِّعَت على كثيرين رغم أنه لم يَحْدُ ذلك، يروي جاهد أردوغان -وقد بذل جهداً مشكوراً في تسجيل الدروس- ملاحظاته الأولى حول الأستاذ وفترة الوعظ قائلاً: "اضطررت في عام ١٩٦٥م أن أترك حِرْفتي، وكان لديّ مصنع للملح، لكنني كنت أرى يومئذ أن تسجيل دروس العلماء المشهورين أمثال الأستاذ طاهر بُيُوكُ كُورْكُجو ويشار طوناكُور لتوزيعها على المناطق المجاورة يُعدُّ خدمة للإسلام، وكان وعظ الأستاذ يشار خاصة يُوَثِّر في أيَّما تأثير؛ فبذلت ما في وسعي لنشر مواعظه في المناطق المجاورة؛ وذات يوم صدر قرار بتعيين الأستاذ يشار في أنقرة مساعدًا لرئيس الشؤون الدينية، فطلب أعيان إزمير إلى الأستاذ يشار أن يسعى لإيقاف هذا التعيين الجديد، واجتمعوا

عنده ليتقدموا بطلبهم هذا، وكنت معهم يومئذ، فقال لنا: "لا تحزنوا على فراقى، فلسوف أرسل إليكم مَنْ تحبونه أكثر منى"، ولا ريب أنهم جميعاً كانوا يعدّون هذا منه مواساة لهم، وأنّ شيئاً من هذا لن يحدث.

رحل الأستاذ يشار، وبِتْنَا ننتظر الأستاذ الجديد بشغف، ولم أكن لأصدّق أنه سيكون كما قال الأستاذ يشار؛ فأنا أعرف كلّ مشايخ هذا العصر في بلادنا، وتدور عجلة الزمان ويأتي الأستاذ الجديد، فذهبت لأستمع إليه، وقطعت أنّه لا داعي لإحضار المسجّل، إلا أن التّدّم كاد يأكلني وأنا أسمع موعظته، وكنت أرّدد في نفسي: ليتني سجّلت، انتهى الدّرس وغدوتُ مبهوراً؛ لقد كان وعظاً مؤثّراً ما سمعتُ مثله قطّ، فعزمت من فوري على أن لا أعادر صغيرة ولا كبيرة من مواعظه إلا سجّلتها، والحمد لله الذي هداني لهذا، فأصبحتُ تلكم الوظيفة شغلي الشاغل، ودأبت عليها -بفضل الله- إلى اليوم، وعسى أن يدوم فضل الله عليّ ما دمت حيّاً، فيا ربّ وفّقني ولا تقطع سيّبك عني^(٢٢).

كان الأستاذ أحمد فيزي رحمه الله لا يستكثر من الوعاظ، ولا يُعجبه أمرهم، وما استطعت أن أحمله على سماع أحدٍ منهم، فهو من أهل العلم أصلاً؛ وذات يوم قابلته وأنا في طريقي إلى الموعظة، وأظنّ أن ذلك كان في الأسبوع الثالث من وصول الأستاذ فتح الله إلى إزمير، فسألني: إلى أين؟ فقلت: إلى الموعظة، إنّه واعظ ليس له نظير؛ هلّمّ معي، فأبى، فأليّت عليه -وكان يحبّني كثيراً- فلبّى دعوتي وحضرنا معاً؛ فلما انتهى الوعظ وصلّينا الجمعة بدءاً بالناس بالخروج من المسجد، فشرعتُ أجمع

(٢٢) توفي جاهد أردوغان في ١٠ يونيه/حزيران ١٩٩١م؛ واستجاب الله دعاه فظلّ ينشرُ مواعظ الأستاذ فتح الله حتى الوفاة، رحمه الله رحمة واسعة.

أغراضني لنخرج، وكان بين الأستاذ فتح الله والأستاذ أحمد فيزي عدّة صفوف، فلما نهض الأستاذ فتح الله هبّ هو أيضًا وتوجّه إليه مسرعًا وتصافحا، لا أدري ما دار بينهما، فإن كان هناك ما أعلمه فهو أن الأستاذ أحمد فيزي اغتبط أيّما غبطة بحضوره الموعظة؛ فما إن انتهينا حتى سارّني قائلاً: "أصبت، إنّه واعظ ليس له نظير"، قلت له هذا من قبل فلم يقتنع، والآن شاطرني الرّأي.

لم يكن الأستاذ فتح الله يرضى أن تُسجّل مواعظه قطّ، لكننا لم نعبأ بذلك، ونجحنا في تسجيل الدروس، فالإمام الغزالي يقول: "أحياناً تكون الموافقة قبيحة لا ينبغي أن تقع بل الأدب المخالفة ما أمكن"^(٢٣)، فسلكننا نحن أيضًا هذا المسلك^(٢٤).

كان للأستاذ فتح الله برنامج مكثّف، فهو في عملٍ دؤوب ليل نهار؛ يحكي بكلماته هذه كيف كان يقضي يومه يقول: "كنت أعظ في أكثر من مكان -مكانين أو ثلاثة- في إزمير، وفي الوقت نفسه لا ألو في الحضور إلى الأماكن التي تطلب مني موعظة، كنت أعظ كلّ جمعة في جامع كستانه بزاري، أما المواعظ الأخرى فأجعلها ما استطعت يوميّ

(٢٣) إحياء علوم الدين: ٥٦/٢. وسياق المقولة (كان علي ﷺ يضجر من كثرة تطبيق الحسن؛ فكان يعتذر منه على المنبر ويقول في خطبته: إن حسناً مطلقاً؛ فلا تُنكحوه، حتى قام رجل من همدان فقال: والله يا أمير المؤمنين لننكحنه ما شاء، فإن أحبّ أمسك، وإن شاء ترك، فسُرّ ذلك عليّاً، وقال: لو كنتُ بواباً على باب جنة... لقلتُ لهمدان ادخلي بسلام، وهذا تنبيه على أن من طعن في حبيبه من أهلٍ وولدٍ بنوع حياء، فلا ينبغي أن يوافق عليه، فهذه الموافقة قبيحة بل الأدب المخالفة ما أمكن).

(٢٤) يُحكي أن الأستاذ فتح الله عاتبه ذات يوم بسبب تسجيله المواعظ، لكن السيد جاهد ردّ عتاب الأستاذ بأسلوب يحاكي العتاب أيضًا قائلاً: "لا أسجّل المواعظ لأجلك أنت، ولكنني أسجلها ليستفيد الناس بها، هذه مهمتي التي تهمني، فلتهمك مهمتك!" فلم يستطع الأستاذ فتح الله أن يجيب، فاستمر هو في مهمته إلى آخر عمره ﷺ.

السبت والأحد، فالحمد لله آتني كنتُ أطيق ذلك؛ مثلاً كنت أذهب يوم السبت لأعظ في أحد الأماكن، فيستغرق طريقي الليل كله، وفي اليوم التالي أعظ في مكان آخر، وأقضي المساء في الطريق بلا فتور؛ ولم يكن شيء من هذا ليشغلني عن دروس الطلبة في الصباح، فكنت أدرك دروس الطلاب على وقتها". فلو تأملنا رحلاته هذه في المواصلات العامة في ذلك الحين، لأدركنا شيئاً من المعاناة التي كان الأستاذ يتكبدتها.

ورغم أن الأستاذ فتح الله كان يهدف من مواعظه ومحاوراته إلى الوصول للطبقة العريضة من الناس؛ إلا أنه كان يرفض بئاً أن ينسب إلى شخصه ما ييديه الناس من شغف بالموعظة، وكم كان يغضب عندما يصرف الناس اهتمامهم لشخصه بدلاً من الحقائق التي يتكلم حولها، وكان يتجمل بالتواضع -إحدى خصاله المميزة لشخصيته- وتواضعه يظهر عند اهتمام الناس بمواعظه.

وللسيد "مُحَرَّم قَلْيُونُجُو" ذكرى يحسن ذكرها مثلاً على هذا، يقول: "ذات يوم ذهب الأستاذ فتح الله ليعظ الناس في مقاطعة "برصا" فذهبت معه بالحافلة، فلما وصلنا وجدنا الناس ينتظرون، فالموعظة بعد العصر أو المغرب، وبينما كنا نزل من الحافلة إذ سمعنا نداءً من مكبرات الصوت بالبلدية: "انتبهوا جيداً فالיום سيعظنا الواعظ المشهور الأستاذ فتح الله كولن"، إذا بالأستاذ فتح الله تحين الفرصة ليتسلل من بين الزحام، وركب من فوره سيارة تنادي: إزمير.. إزمير..، ولحقنا به بصعوبة في وسط هذا الزحام، ولم نعرف السبب؛ وقد علمنا بعد أنه غضب كثيراً عندما سمع صوت مكبرات الصوت، فغادر المكان، ولم يعظ فيه ذلك اليوم.

ومثل هذا وقع في مدينة بُورُصة أيضًا، ففي إحدى المحاضرات تعالت أصوات التصفيق عندما بدأ الأستاذ فتح الله بالحديث، فأشار إليهم ألا يفعلوا، إلا أنهم فعلوها ثانية، فحملق الأستاذ كالعقاب هذه المرة وأكمل حديثه، فلما تكرر الأمر قال: "السلام عليكم"، وغادر المكان، وكانت المحاضرة في سينما، ويحضرها جمع جُم من الناس".

نعم، إن مواعظ الأستاذ فتح الله بالغة التأثير، لكن لا يمكن أن نخترل وصفها ببيان المفلق فحسب، فعلاوة على هذا تلقاك مُعاناته قبل أن يتفوه بأية كلمة، فقبيل الموعظة بيوم على الأقل يتفاعل مع موعظته في جيشانٍ هائل؛ لذا كان يفيض إخلاصًا وصدقًا في وعظه للسامعين، ولا يني في محاسبته نفسه طوال الموعظة، ولا يقول ما لا يفعل، وميزانه في هذا الأمر حساس جدًا، يقول: "لو تشاءبتُ أثناء الصلاة في الليل، لقضيت شهرًا لا أتكلّم فيه بتاتًا عن الصلاة أمام عُمار المسجد"؛ إن هذا ليشير إلى محاسبته العلية ونظامه الداخلي العالي.

كان الأستاذ فتح الله يعنى بشؤون الطلبة عن كُتب، رغم برنامجه المكثف، وبلغ عدد من يؤليهم عنايةً خاصّة سبعين طالبًا؛ وقد أينعت دروسه بتأثيرها فيهم سعادةً وأملًا في ربوع قلبه.

ويحكي الأستاذ نكتة لأحد طلابه في هذه الفترة تشير إلى مدى تأثير دروسه فيهم، يقول: "إن كانت أعينُ الطلاب في درس الأخلاق لتفيض من الدَّمع، وذات ليلة كنت أتجول في غرف النوم، فرأيت خليل مزيك قد ربط نفسه بأعلى السرير المزدوج، فسألته عن صنيعه، فقال: "فكرت فيما قلّته بالأمس، فربطت نفسي لئلا يغلبني النوم".

مَضَتْ سِتَانِ عَلَى وَصُولِهِ إِلَى إِزْمِير؛ فَازْدَادَ عِدَدُ الطَّلَابِ كَثِيرًا، وَبَاتَ الْإِهْتِمَامُ بِهِمْ فِي فِتْرَةِ الصَّيْفِ ضَرُورَةً؛ فَقَامَ بِتَنْظِيمِ دَوَرَاتِ تَأْهِيلٍ فِي مَخِيْمَاتٍ صَيْفِيَّةٍ، فَوَاجِهَتْهُ عَقِبَةُ التَّمْوِيلِ، حَقًّا إِنَّهَا مَعْضِلَةٌ، فَقَصَّدَ أَنْقَرَةَ يَلْتَمِسُ مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ الَّذِينَ يَعْرِفُهُمْ مَنْ يَمُولُ حَاجَاتِ الْمَخِيْمِ لَا سِيَّمَا الْخِيَامَ، فَهَضَّ هَوْلًا بِإِنْشَاءِ أَوَّلِ مَخِيْمٍ، فَالْتَحَقَ بِهِ سَبْعُونَ طَالِبًا؛ وَمَا زَالَ الْعِدَدُ يَزْدَادُ فِي الْأَعْوَامِ التَّالِيَةِ، حَتَّى صَارَ الطَّلَبَةُ فِي السَّنَةِ الثَّلَاثَةِ يَتَنَابَوْنَ عَلَى الْمَخِيْمِ لِكَثْرَتِهِمْ.

اضْطُرَّ الْأُسْتَاذُ فَتَحَ اللَّهُ -وَهُوَ مَنْ يَقِفُ وَمَا يَزَالُ وَرَاءَ الْخِدْمَةِ يَوْمَ أَنْ بَدَأَتْ عَلَى هَذِهِ الشَّكْلَةِ- إِلَى الْإِحْتِكَالِ بِمَنْ يَتَرَبَّصُونَ بِهِ وَيُشِيرُونَ الزُّوَابِعَ مِنْ حَوْلِهِ، وَكَانَ مِنْهُمْ أَنْ أُرْسِلُوا خِطَابًا فِيهِ مَا فِيهِ مِنْ تَحْقِيرٍ لِقَاضِيَةٍ كَانَتْ تَنْظُرُ فِي دَعْوَى ضَدَّهُ فِي أَدْرَنَةِ، مُحَاكِينَ تَوْقِيعِهِ؛ فَتَحَرَّتِ النِّيَابَةُ عَنْهُ، إِلَّا أَنْ وَكِيْلَ النِّيَابَةِ أَدْرَكَ بَعْدَ التَّحَرِّيِ أَنَّهَا مَكِيدَةٌ مُلَفَّفَةٌ، فَبَرَأَ سَاحَتَهُ.

وَبَيْنَمَا الْأُسْتَاذُ يُمْنَى بِمِثْلِ هَذِهِ الْمَكَائِدِ أَخَذَ بَعْضُ الْإِدَارِيِّينَ فِي سَكَنِ الطَّلَابِ يَشِيرُ الْمَشْكَلَاتِ أَيْضًا؛ فَقَدْ كَانَ فِي صَلْتِهِ الْعَمِيقَةِ بِالطَّلَابِ وَتَأْثِيرِ وَعْظِهِ فِيهِمْ مَا يَشِيرُ حَفِيزَةً بَعْضُ الْإِدَارِيِّينَ فِي السَّكَنِ وَالْوَقْفِ، كَانَ هُوَ الْمَعْرِفَةُ إِلَّا أَنَّهُمْ أَرَادُوا لَهُ أَنْ يَكُونَ نَكْرَةً؛ فَبَذَلُوا قِصَارَى جَهْدِهِمْ لِيَقْصُوهُ عَنْ عَمَلِهِ؛ وَيَقْتَضِبُ الْأُسْتَاذُ فَتَحَ اللَّهُ وَصَفَهُ لِهَذِهِ الْفِتْرَةِ الْحَرَجَةِ بِقَوْلِهِ: "بَرَحَ بِي الْأَلَمُ حَتَّى لَكَأَنِّي أَلْعَقُ الصَّبْرَ"، فَتَجَشَّمُ الصَّبْرَ عَلَى صُنَاعِ الْمَشْكَلَاتِ، فَلَمَّا بَلَغَ السَّيْلُ الرُّبِّيَّ اضْطُرَّ أَنْ يَغَادِرَ كُوْحَهُ الْخَشْبِيَّ بَعْدَ خَمْسِ سَنَوَاتٍ أَمْضَاهَا فِيهِ، فَتَرَكَ هَذَا الرَّحِيلَ آثَارًا كَبِيرَةً فِي عَالَمِهِ الدَّخْلِيِّ، وَكَانَ قَدْ تَعَلَّقَ بِهَذَا الْمَكَانِ فَتَجَلَّى تَعَلُّقُهُ بِهِ فِي كَلَامِهِ عَنْ كَسْتَانِهِ بَزَارِي إِذْ يَقُولُ: "كَانَ سَكَنُ الطَّلَابِ فِي كَسْتَانِهِ بَزَارِي كُلِّ شَيْءٍ فِي حَيَاتِي، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى بَالِي أَنْنِي سَأَرْحِلُ عَنْهُ يَوْمًا مَا، حَتَّى إِنْنِي تَمَنَيْتُ أَنْ يَكُونَ أَحَدُ

أركانه قبراً لي، فمرادي الأول والأخير أن أُدفن في كستانه بزاري، لأسمع أصوات الطلاب من قبري؛ نعم، فهذا هو كل ما أتمنى وأطلب من الدنيا؛ لذا رفضت دون أدنى تفكير ما عَرَضه عليّ رجال الأحزاب بعزم وإصرار من منصب رفيع".

"كانت حدة الأزمات في كستانه بزاري تزداد يوماً بعد يوم دون توقف، فاتخذت منزلاً في حيّ "كُوزُلْ يالي"، وفي ليلة ليلاء جمعت أمتعتي وحملتها في العربة، وساعدني الطلاب في ذلك، رحلت عن كستانه بزاري وعيناي تفيضان من الدمع، وقلبي يتلظى بلوعة الفراق، فلربما برّح بي الشوق إلى كوشي الخشبي الذي أنستُ به سنين عدداً، ويكأنّي فقدتُ شيئاً من جسمي بعد أن ألفتُ كوشي وكستانه بزاري، ناهيك عن طلابي الذين نزلوا مني منزلة الرّوح من الجسد....

وأنّى لي أن أنسى تيكم الأيام، أو كوشي الخشبي، وقد أفضيتُ بأقدس أسرار روحي إليه؟ لا أظنّ أنني سأنساه، وكيف أنساه أو أنسى طلابي الذين يترأى لي خيالهم في كلّ شيء، ففي لحظات الوداع كانت أعينهم تفيض من الدمع حزناً، وكأنّي بنظراتهم البريئة تتوسل وتستغيث: لمن تتركنا؟ أه آه... ليتني أقدر أن آخذهم معي جميعاً؛ إلا أنّ ذلك لم يكن في وسعي يومئذ".

"كأنّ عجلة الزمان لا تدور، فالثواني باتت سنين، أمّا الأيام التي قضيتها مع طلابي فأكاد أتخطى فيها الزمن وكأنّي أسأقه، فما أقوم به وما ينبغي لي أن أفعله يضيق به الليل والنهار، فالواجبات أكثر من الأوقات، أي هل لمثل هذا الوقت الضيق أن يستوعب هذا الكمّ من العمل الذي يتطلّب أكثر من أربعة وعشرين ساعة في اليوم؟"

خَلَّف الرحيل عن كستانه بزازي حزنًا هائلًا، فهذا المكان ليس كغيره، فكم وكم من الخدمات شَعَّ نورها منه.

في هذه الفترة لمعت في الأفق فكرة إصدار جريدة، فأصدر هو وصالح أوزجان جريدة أسبوعية اسمها "الاتحاد"، وحظي صدورها بتأييد السيد زبير كوندُرْ أَلْب، وسرعان ما استفحل الخلاف حول الجريدة، فإذا بها بَوَابَة خلاف وقد كان يُرَجَى لها أن تكون رابطة لا مِمْرَقة، فلما رأى الأستاذ فتح الله أَنَّ الأمور لا تسير على ما يرام، وأن الجريدة لا يمكنها تحقيق هدفها على هذا النحو، عزف عن المشاركة في فعاليتها.



توديع الأستاذ فتح الله أثناء مغادرته إزمير للحج ١٩٦٨/٢/١٨م

وفي هذه الفترة أيضًا سافر الأستاذ فتح الله ليحجَّ، وكان ثالث ثلاثة أرسلتهم رئاسة الشؤون الدينية مشرفين على بعثة الحج عام ١٩٦٨م، فأورثته تلك الزيارة فضل شوق وشغف بحياة الصحابة لا سيما أَنَّهُ ترعرع على حَبِّهِمْ، وكان إذا تحدَّث عن محبَّة النبي ﷺ يَغْطِّي بكائه غطْطة

القدر، وكان هذا الشوق هو رفيقه في رحلته كلها، وها هو ذا يحكي مشاعر غمرته في أول وهلة رأى فيها الكعبة والروضة المطهرة بقول: لما رأيت الكعبة والروضة المطهرة لأوّل وهلة إذا بي في حالة روحية لا تُوصَف، ولو فتّحت لي أبواب الجنة كلّها حينئذ -وهذا محض خيال- ودعيت إلى دخولها، لعزفت دخول الجنة حتمًا ولرغبْتُ في البقاء بجوار الكعبة الشريفة والروضة المطهرة؛ لقد وجدتُ في مجاورة الحرم الشريف والروضة المطهرة لذة روحية غامرة ومتعة ليس لها نظير...

تذكّرتُ طلابي لا سيما طلاب كستانه بزاري، فلهم عندي مكانة متميزة، فأعددتُ قائمة بأسمائهم، وأحضرتهاُ معي إلى الحج، فدعوت لهم فردًا فردًا، علاوة على أنني دعوت لآخرين أعرفهم بأسمائهم".

من ذكريات أيام كستانه بزاري التي لا يتأتى نسيانها المخيمات التي أطلت ببشائر جيل جديد؛ وهي مخيمات صيفية أنشئت في "بوجا" بإزمير عند قرية "قائناقلار" في عرين أشجار الصنوبر بين الحقول؛ أنشئت لتربية الطلاب وتهذيبهم، وتعليمهم كيف ينبغي أن يستثمروا وقتهم بشكل صحيح، فكانت مكانًا مناسبًا للمخيم، فالمكان يمتاز بالهدوء والهواء الطلق على ما فيه من مشقة في تحصيل مستلزمات الحياة.

ويُعرب الأستاذ فتح الله عن أهداف المخيم قائلاً: "يهدف المخيم إلى استغلال الطلاب لعطلة الصيف في هذه المخيمات، كيلا يذهبوا إلى قريتهم أو بلدتهم فينقطعوا عن طلب العلم، ومن أهدافه أن تنظم عقولهم وقلوبهم وأرواحهم، وأن يتعمقوا في العلوم الشرعية"، ولهذه الكلمات إشارات دالة تفسّر تأثر من كانوا معه بأفكاره حينئذ. ويذكر الأستاذ أن الأيام التي قضوها في المخيمات تركت أثرًا عميقًا في الذين حضروها.

في السنة الأولى ضمّ المخيم ٥٠-٦٠ طالبًا، وفي السنة الثانية والثالثة ناهز عددهم الألف، فصاروا يتناوبون بعدد على المخيم، تراوحت أعمار من التحق بالمخيم في السنة الأولى بين ١٣-١٤ عامًا، ثم التحق به طلاب الجامعة في الأعوام التالية.

لم تكن المخيمات مألوفة في هذه الفترة، فلم تجد كثيرًا من المؤيدين، فمن الناس من تردد في تعليم الشباب بهذه الطريقة؛ فواجه الأستاذ فتح الله عقبات عدّة في هذا الصدد، منها محاولته توفير مصروفات المخيم من ناحية، وتطبيق النظام والالتزام به في الحياة اليومية بالمخيم من ناحية أخرى، وتصديّه لصعوبات المكان الذي نُصِب فيه المخيم، يقول: "كان المخيم الأول كئيبيًا بعض الشيء؛ فأنا المسؤول عن كلّ شيء، من نصب الخيمة إلى تجهيز الطعام، ولو فسد شيء من هذا فعليّ أن أصلحه، وكثيرًا ما كانت مضخة البئر تتعطل، فأصلحها بنفسني في كلّ مرّة؛ ولم تتوفر الكهرباء في العام الأول، وحصلنا في العام التالي على مولّد كهربائي صغير بلغت قوّته ثلاث كيلو واط، وكثيرًا ما كان يتعطل المولّد أيضًا، وتصلّحه عليّ طبعًا...

وكلما ازداد عدد الطلاب تضاعفت المشقة، ففي السنة الثالثة خاصّة حلّت بالمخيم أزمة كبيرة في المياه، كنت أحمل المياه بعربة من الآبار من مسافة بعيدة في تلك المنطقة، فكنت السائق والساعي والمدرّس، في الحقيقة إن توفير الطاقة لكل ذلك كان أمرًا شاقًّا لأبعد حد، لكنني كنت أحاول جاهدًا.

كان المولّد الكهربائي قديمًا جدًّا، كنت أضطر كلّ يوم إلى فكّه وإصلاحه، ويكأنّي أصبحت مهندس مولّدات كهربائية! وأحيانًا كان

لا بدّ من حفر البئر قليلاً، فأحفره بالمجرفة بمساعدة الأصدقاء، ثم تعاظداً لبنني الحّمّامات، ففعلنا، بل حفرنا لها الصرف الصحي أيضاً. وإنما أذكر هذه الأعباء لأنني أرى فيها أجمل لحظات حياتي، لا لأحكي عن مكابدات قاسيتها يومئذٍ.

وتفاقمّت المشكلات حين تخلي أمناء الوقف في كستانه بزازي عن مساعداتهم كلياً للمخيم لا سيما المخيم الثالث.

وضاق بعض الناس ذرعاً بزيادة عدد المقبلين على المخيم، حتى وصل الأمر بهم إلى قطع الطريق على الأستاذ فتح الله وطلابه، بل قاموا بتهديدهم بشكل غير مباشر؛ فطاف الأستاذ فتح الله شهراً كاملاً في جبال "نيف" يبحث فيها عن مكان للمخيم، حيث يقول الآن: "أعرف جبال نيف كما أعرف راحة يدي" إلا أنه لم يجد فيها مكاناً مناسباً، وخاطر بكل شيء وأنشأ المخيم في نفس المكان.

كان الأستاذ فتح الله يقوم بأنشطة المخيم كلها، ولا يغادره بلا ضرورة، اللهم إلا يوم الجمعة إذ كان يذهب إلى إزمير يخطب الجمعة ويلقي المواعظ؛ وفي السنة الثانية أخذ إجازة ولم يغادر المخيم، أما في السنة الثالثة فكان يغادر المخيم كل جمعة فقط ليخطب ويعظ.

أمّا أيام المخيمات بأنشطتها الاجتماعية والرياضية الكثيرة علاوة على ما فيها من دروس تُلهب حماس الطلبة فيصفها الأستاذ فتح الله قائلاً: "ازدان المخيم بالنظام والأدب والعلم معاً؛ فخطونا بهذا أول خطوة نحو عالم طالما حلمنا بنضرتة وصفاء آفاقه؛ واقع الأمر أنني لم أكن أفكر في مغادرة المخيم والنزول إلى المدينة بلا عذر. نعم، كنت آتي إزمير كل جمعة للخطبة والموعظة، وفي السنة الثانية أخذت إجازة

ولم أغادر المخيم قط، أما في السنة الثالثة فلم أكن لأغادر المخيم إلا يوم الجمعة للخطبة والموعظة، لم يكن شيء على وجه الأرض يعدل مذاق التعبّد بقيام الليل، وبالتأهب لصلاة الفجر على وقتها في صيف لياليه كأنها الضيف، وبالقراءة حتّى السحر. حاولت أن أنظم بقصيدة - وإن لم تكن بذاك - عن مشاعري تجاه هذه المخيمات، ولت شعري هل استطاع شعري أن يُعرب عن شعوري؟ لكنني لم أَلْ جَهْدًا في التعبير عن خبايا ما في سريرتي من شوق ولذة".

"أيام المخيمات" هذا هو اسم القصيدة التي أشار إليها، وكتب الأستاذ مقالة في الموضوع نفسه عنوانها "الزمن في المخيمات".

ومن الأهميّة بمكان لمن يؤرّخ لتلك الحقبة واصطبغ بمشاعرها أن يصف لنا في شعره أو مقالته كيف مرّت تلك الأيام، وجوهر ذاك النشاط المتميز الذي أُعدّ للشباب في فترة حيل فيها بينهم وبين الروحانيات.